الدكتور عبد الله محمد سليمان هنداوي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية – جامعة الازهر
فرع الزقازيق

من أسرار النظم القرآني
في

الإفراد والتثنية والجمع

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ – ١٩٩٤م

مطبعة الأمانة
١ ش جزيرة بدران – شبرا مصر ت: ٣٦٢٩٣٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد المنزه عن الشريك والند والولد والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ، وأفصح العرب أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تابعهم باحسان الى يوم الدين وبعد :

فان القرآن الكريم هو كتاب الله الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ودراسة القرآن جمعت اتجاهات متعددة فى تفسيره ونظمه منها التفسير بالمأثور ومنها التفسير بالرأى ومنها ما جمعت بين الاتجاهين فالتقى فيها العقل والنقل ، ولعل هذا الاتجاه هو أصوبها لأن القرآن الكريم فيه المحكم والمتشابه « وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » •

ويتناول هذا البحث بعض الألفاظ الواردة فى القرآن على الافراد والتثنية والجمع ولاسيما المتشابه منها دراسة تحليلية مفصلة من خلال النظم وما توحى به من المعانى والأسرار البلاغية من خلال السياق ، فالقرآن قد اشتمل على ألفاظ وردت بصيغة المفرد ولم ترد بصيغة الجمع كلفظ الأرض لم ترد فى القرآن مجموعة ، وألفاظ وردت على صيغة الجمع فقط ولم ترد مفردة ، وقد حاولت من خلال قراءتى فى بعض المراجع أن أبين السر البلاغى لورودها على هذه الصيغة •

وفى النظم القرآنى ألفاظ وردت مفردة فى موضع ومثناة فى موضع ومجموعة فى موضع آخر فبينت مدى مناسبة كل صيغة منها فى سياقها

الذى وردت فيه ، وبينت الأسرار البلاغية التى تستفاد من كل موضع وقد يؤثر النظم القرآنى الافراد على الجمع فى مقام الجمع فيكون من وضع الواحد موضع الجمع .

وقد يؤثر الجمع على الافراد فيأتى بالجمع فى محل المفرد فيكون من وضع الجمع موضع الواحد ، ويفهم من وراء هــذا وذاك أسرار بلاغية بيناها من خلال السياق ، وقد يؤثر النظم القرآنى بعض جموع القلة على جموع الكثرة أو العكس أو يؤثر بعض الجموع فترد على صيغة معينة لم ترد على غيرها فاردت أن يقف القارىء على ورودها على هذه الصيغة دون غيرها .

والخطاب يتنوع من الافراد الى التثنية الى الجمع أو بالعكس فوقفت عندها أبين من خلال السياق الأسرار البلاغية التى تفهم من وراء هذا التنوع .

وهذا البحث لم ينل كثيرا من عناية البلاغيين المتقدمين فأنت تقرأ كتبهم البلاغية تجدها لا تتناول الا مسائل قليلة لا تتعدى الصفحة أو الصفحتين ، وهذه القلة لا تشفى غليل الباحث المتطلع الى دراســة هذا الموضوع من كل جوانبه هذا هو الذى دفعنى الى كتابة هذا البحث وانى لأرجو الله تبارك وتعالى أن يجعله فى ميزان حسناتى يوم القيامة وأن يعم به النفع انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير .

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

المؤلف

د/ عبد الله محمد سليمان هنداوى

الفصل الأول

ما ورد من المتشابهات

فى الافراد والتثنية والجمع

القرآن كلام الله المعجز فيه من الآيات البينات والدلائل النيرات على سمو بلاغته واعجازه ما يفوق الحصر ولا يحيط به الوصف ولذلك سما عن بلاغة البشر فعجزوا عن معارضته وهم فى أسمى مراتب البشرية من الفصاحة والبيان .

ومن ثم تتابع العلماء فى كل جيل للكشف عن أسرار اعجازه وسمو بيانه بقدر ما أتيح لهم من علوم ومعارف ولا يزال القرآن عطاؤه يتجدد فى كل زمان ، وسوف نقتطف من أزاهير أسراره ودقيق بيانه حول سر اختلاف صيغ كلماته من الافراد والتثنية والجمع ما يتسع له المقام .

من ذلك ما نراه فى سر العدول عن الافراد الى الجمع فى قوله تعالى « اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم » فاذا كان المصلى وهو فرد ينطق بهذا الكلام فيقول اياك أعبد واياك أستعين اهدنى . فلم جمع ؟

والجواب عن هذا ما ذكره الفخر الرازى فى تفسيره وما نقله عنه القطب الرازى فى حاشيته على الكشاف وحاصله : هو أن المؤمن فى هذا المقام فى غاية الخضوع والتذلل لله رب العالمين ، ولديه رغبة ملحة فى قبول صلاته ودعائه فكأن العبد يقول : الهى ما بلغت عبادتى

الى حيث أستحق أن أذكرها وحدها ، لأنها ممزوجة بجهات التقصير ولكنى أخلطها بعبادات جميع العابدين وأذكر الكل بعبارة واحدة وأقول « اياك نعبد واياك نستعين » فأحمدك وأعبدك وأستعين بك لا وحدى بل مع الملائكة وسائر الناس وفائدته : أنه اذا عرض على حضرة الله حمد جميع الحامدين وعبادة جميع العابدين وحاجات جميع المحتاجين فاما أن يرد الكل وذلك غير حاصل لمخالفته وعده الصادق فى كتابه اذ فيهم الملائكة والأنبياء والأولياء • أو يقبل البعض دون البعض وذلك لا يليق بكرم أكرم الأكرمين • أو يقبل الكل فيصير حمد هذا القائل وعبادته وحاجته مقبول ببركة دعاء غيره ، وكذا القول فى اهدنا فان الدعاء مهما كان أعم كان الى الاجابة أقرب (١) •

وهناك أسرار أخرى غير ما تقدم فالنكات والأسرار البلاغية لا تتزاحم منها ما ذكره ابن القيم فى بدائع الفوائد وهو أن الجمع يتضمن من الثناء على الرب بسعة مجده وكثرة عبيده وكثرة سائليه الهداية ما لا يتضمنه لفظ الافراد اذ المقام مقام عبودية وافتقار الى الرب تعالى واقرار بالفاقة الى عبوديته واستعانته وهدايته مما يتناسب مع الاتيان بصيغة ضمير الجمع أى نحن معاشر عبيدك مقـــرون لك بالعبودية ، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك فيكون هذا أحسن وأعظم موقعـــا عند الملك من أن يقول : أنا عبدك ومملوكك ، ولهذا لو قال : أنا وحدى مملوكك استدعى مقته ، فاذا قال : أنا وكل من فى البلد مماليكك وعبيدك وجند لك كان أعظم وأفخم ، لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جدا وأنا واحد

---

(١) انظر : تفسير الفخر الرازى ٣٠٢/١ وحاشيـة عبد الحميد الرازى على الكشاف •

منهم وكلنا مشتركون فى عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك (٢).

ومنها : أن التعبير بضمير الجمع يفيد موالاة المؤمنين بعضهم لبعض وتناصرهم وتعاونهم وأنهم كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، فالمؤمن لا يذكر عبادة نفسه فقط وانما يذكر عبادة نفسه وعبادة جميع المؤمنين فى كل زمان ومكان فأنه سعى فى اصلاح مهمات سائر المؤمنين واذا فعل ذلك قضى الله مهماته لقوله ﷺ « من قضى لمسلم حاجة قضى الله له جميع حاجاته » فالمؤمن أخو المؤمن يحس بإحساسه يفرح لفرحه ويحزن اذا أصابه مكروه .

ومنها التنبيه على فضل صلاة الجماعة اذ الأولى بالمؤمن أن يؤدى الصلاة فى جماعة فاذا قال « نعبد » فالمراد منه ذلك الجمع الذى يصلى معه .

وفى قوله تعالى « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » نجد سرا بلاغيا فى جمع « الجنة » على « جنات » لأ نه قد يرد على الذهن سؤال وهو أن الجنة لما كانت اسما لدار الثواب ودار الثواب لا تتعدد فما معنى جمع الجنة ؟

والجواب عن هذا أن الجنة وان كانت اسما لدار الثواب كلها الا أنها مشتملة على جنات كثيرة بمثابة المنازل للمتقين فمنها الفردوس والعدن والنعيم وجنة المأوى ودار الخلد ودار السلام . وجمع سبحانه فى هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار

---

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم ٢/٣٩ .

والشهبان ، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه (٣) .

وقد يكون الجمع دالا على الزيادة والشدة أي أن الشيء الواحد قد يعبر عنه بالجمع لشدته وزيادته وتمكنه في النفس كما في قوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم » (٤) .

ذكر الزمخشري أن الجمع في « أمانيهم » أشير به الى الأماني المذكورة قبل هذه الآية وهي أمنيتهم ألا ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، وأمنيتهم أن يردوهم كفارا ، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم أي تلك الأماني الباطلة أمانيهم (٥) وعلى هذا يكون الجمع هنا على أصله غير معدول به عن الواحد .

ولما كان قوله تعالى « قل هاتوا برهانكم » متصلا بقولهم « لن يدخل الجنة .. » ألجأ الزمخشري الى القول بأن جملة « تلك أمانيهم » اعتراض بين الدعوى ودليلها .

وقد رد ابن المنير على الزمخشري مستبعدا ما قاله بذكر الدليل فقال : « يبعد هذا الجواب قوله تعالى عقيب ذلك « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » وقوله تعالى : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فان البرهان المطلوب منهم ههنا انما هو على صحة دعواهم أن الجنة لا يدخلها غيرهم ويحقق هذا قوله : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عنده

---

(٣) التفسير القيم للامام ابن القيم ١٣٩ .
(٤) البقرة : ١١١ .
(٥) الكشاف ٣٠٥/١ .

ربه » فانما يعنى الجنة ونعيمها ردا عليهم فى نفى غيرهم عن دخولها فغى هذا دليل بين على أن الأمانى المشار اليها ليس الا ما طولبوا باقامة البرهان على صحته وهو أمنية واحدة ٠

ثم يبين السر فى العدول عن الواحد الى الجمع فيقول : والجواب القريب أنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية ، ومعاودتهم لها وتأكدها فى نفوسهم جمعت ليفيد جمعها أنها متأكدة فى قلوبهم بالغة منهم كل مبلغ والجمع يفيد ذلك وان كان مؤداه واحدا ونظير هذا قولهم « معا جياعا » (٦) فجمعوا الصفة ومؤداها واحد تأكيدا لثبوتها وتمكينها أى جعله لفرط جوعه كجماعة جياع ، وهذا المعنى أحد ما روى فى قوله تعالى : « ان هؤلاء لشرذمة قليلون » (٧) فانه جمع قليلا وقد كان الأصل افراده فيقال لشرذمة قليلة كقوله تعالى « كم من فئة قليلة » لولا ما قصد اليه من تأكيد معنى القلة بجمعها ، ووجه افادة الجمع فى مثل هذا التأكيد أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة فى الآحاد فنقل الى تأكيد الواحد وابانة زيادته على نظرائه نقلا مجازيا بديعا (٨)

وذكر الشيخ الطاهر ابن عاشور فى سر الجمع هنا معنى جديرا بالقبول وهو أن الجمع هنا مراعى فيه تعدد الأمنية عند الأفراد من اليهود والنصارى اذ هى كانت أمنية كل واحد منهم فصارت أماني كثيرة بهذا الاعتبار (٩) ٠

---

(٦) اى فى قول الشاعر :

كأن قتود رحلي حين ضمت ... حوالب غرزا ومعا جياعا

(٧) الشعراء ٥٤ ٠

(٨) الانتصاف على الكشاف ٣٠٤/١ ، ٣٠٥ ٠

(٩) انظر تفسير التحرير والتنوير ٦٧٤/١ ٠

وهذا القول لا يتعارض مع القول بالتأكيد اذ أن الجهتين مختلفتين فهى على القولين أمنية واحدة وجمعت على القول الأول للتأكيد والتمكن فى النفس ، وجمعت على القول الثانى باعتبار محلها من الأفراد اذ هم كثير ، وهذا أيضا يفيد التأكيد لأنه نظر الى صدورها من كل فرد على حدة على منوال ما قيل فى قوله تعالى : « وما ربك بظلام للعبيد » .

وذكر الزمخشرى معنى آخر مؤداه أن الكلام على التشبيه يعنى أن أمانيهم كهذه فيكون من التشبيه البليغ بحذف مضاف أى أمثال تلك الأمنية أمانيهم وقد اعترضه أبو حيان فى البحر المحيط فقال : وفى هذا الوجه قلب الوضع اذ قال : ان أمانيهم فى البطلان مثل أمنيتهم هذه وفيه أنه متى كان الخبر مشبها به المبتدأ فلا يتقدم الخبر نحو زيد زهير فان تقدم كان ذلك من عكس التشبيه كقولك الأسد زيد شجاعة (١٠) .

ونقول : لا بأس فى قلب التشبيه اذا كان يقصد من ورائه غرض بلاغى يعود الى المشبه به كغرض المبالغة أو التساوى بين الطرفين فيصلح كل واحد من الطرفين ليكون مشبها ومشبها به ، ولعل هذا الغرض هو المقصود فى هذا المقام فأمنيتهم هذه بأنه لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى لا تختلف عن أمانيهم السابقة فى الاعتقاد وشدة التعلق بها ، فيكون القصد الجمع بين الطرفين فى هذا المعنى من غير أن يقصد كون أحدهما ناقصا والآخر زائدا لأن الغرض هو التشابه أى التساوى بين الطرفين فيه .

وقد يشترك اثنان فى حكم فيؤدى ذلك الى اتحادهما فى نوع

---

(١٠) البحر المحيط ٣٥٠/١ .

واحد فيعبر عنهما بالمفرد كما فى قوله تعالى « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض » فالذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى ، وكل منهما له قبلة تخصه فاليهود تستقبل بيت المقدس والنصارى تستقبل مطلع الشمس فوحد القبلة فى قوله « وما أنت بتابع قبلتهم » وان كانت مثناه لاشتراك كلتا القبلتين فى البطلان ومخالفتهما قبلة الحق فصارا قبلة واحدة فى هذا النوع الباطل ، وهذا على منوال قوله تعالى « لن نصبر على طعام واحد » مع أنه « من وسلوى » لأنهما من طعام المترفة فالمراد الوحدة النوعية ، اذ المن والسلوى واحد فى أنهما من طعام المترفة والقبلتان واحدة فى أنهما من القبلة الباطلة ، ويرى السمين (١١) فى الدر المصون أن توحيد قبلتهم لأجل المقابلة فى اللفظ أى مقابلة ما قبله فى قوله « ما تبعوا قبلتك » ويقصد السمين بالمقابلة ما عرف فى علم البديع باسم المشاكلة .

وقد يكون الجمع دالا على تكرير الحدث كما فى قوله تعالى « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » (١٢) يقول الزمخشرى : الصلاة : الحنو والتعطف فوضعت موضع الرأفة وجمع بينها وبين الرحمة كقوله تعالى : « ... رأفة ورحمة » والذى جعل الزمخشرى يفسر الصلوات بالرأفة هو عطف رحمة عليها ومن المعلوم أن الصلاة من الله على خلقه رحمة فيكون فيه تكرار من عطف المترادفين أحدهما على الآخر فلئلا يقع التكرار فسر الصلوات بالرأفة فيكون من عطف المتغايرين وان كانا متقاربين فى المعنى ثم يبين السر البلاغى فى جمع الصلاة على

---

(١١) الدر المصون ٢/١٦٥ .

(١٢) البقرة : ١٤٥ .

« صلوات » وهو افادة التكرير أى تكرير الرأفة فتكون رأفة بعد رأفة كما في لبيك وسعديك أى رأفات متواترة ، وهذا التكرار المستفاد من الجمع فى صلوات يتناسب مع تنكير المعطوف وهو « رحمة » اذ هى تفيد التعظيم كما قال الزمخشرى « ورحمة أى رحمة » وهذا يتناسب مع المقام اذ أن الآية سيقت فى جزاء الصابرين الذين ألمت بهم المصائب فحمدوا الله واسترجعوا فيكون جزاؤهم من الله تعالى دوام الحنو والتعطف عليهم ودخولهم فى رحمته التى وسعت كل شىء .

وقد يأتى المفرد للنص على حكم شرعي كما في قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » فيفهم من افراد « المسكين » أن الحكم لكل يوم يفطر فيه طعام مسكين ، ولا يفهم ذلك من الجمع (١٣) .

وقد يجمع الشىء الواحد لتعدد أحواله وتكررها كما فى قوله تعالى « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » والأهلة جمع هلال وانما جمع وهو مفرد فى الحقيقة باعتبار اختلاف أزمانه وأحواله من حيث كونه هلالا فى شهر غير كونه هلالا فى آخر فيريد من الأهلة شهورها وقد يعبر بالهلال عن الشهر لحلوله فيه كما قال :

إخوان من نجد على ثقة والشهر مثل قلامة الظفر (١٤)

وكذا قوله تعالى « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » . فالمراد من الشهر الهلال على طريق المجاز المرسل الذي علاقته الزمانية لأن

---

(١٣) الدر المصون ٢٧٥/٢ .

(١٤) تفسير القرطبى ٧١٦/١ .

للشهر زمن حلول الهلال • فالجمع على هذا من حيث تعدد أزمنته وتكرارها ، وقد يكون الجمع من حيث تعدد أحواله ومنازله فيبدو أول الشهر هلالا دقيقا ثم ينمو شيئا فشيئا الى أن يصير بدرا مكتمل الدائرة ثم يغيب عن النظر وينمحي في آخر الشهر ، وهذا المعنى وهو أن جمع الهلال لتعدد أحواله ومنازله هو الأنسب للمقام لأنهم سألوا عن أحواله هذه فأجيبوا بما هو أهم لهم وأنفع مما سألوا عنه على طريقة أسلوب الحكيم •

وقد يتقدم شيئان ومقتضى الظاهر أن يعود الضمير عليهما مثنى ولكن الضمير يعود عليهما مفردا وذلك لمعنى بلاغي يفهم من المقام ويقتضيه السياق كما في قوله تعالى : « فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه » فقد عاد الضمير في « يتسنه » بمعنى يتغير مفردا مع تقدم شيئين وهما الطعام والشراب اما لكونهما متلازمين بمعنى أن أحدهما لا يكتفى به بدون الآخر فصارا بمنزلة شيء واحد حتى كأنه قال فانظر الى غذائك • وقد يعود الضمير على أقرب مذكور فقط وهو الشراب ، وثم جملة أخرى حذفت لدلالة هذه عليها ، والتقدير وانظر الى طعامك لم يتسنه والى شرابك لم يتسنه أو يكون سكت عن تغير الطعام تنبيها بالأدنى على الأعلى ، وذلك أنه اذا لم يتغير الشراب مع نزعة النفس اليه فعدم تغير الطعام أولى أو أنه أفرد في موضع التثنية (١٥) •

ونجد الوصف يقع مرة مفردا وأخرى جمعا مع أن الموصوف واحد وذلك للتفنن في البلاغة كما في قوله تعالى في البقرة : « وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة » وفي آل عمران « معدودات » وذلك أن جمع التكسير غير العاقل يجوز أن يعامل معاملة الواحدة المؤنثة تارة

---

(١٥) الدر المصون ٢/٥٦٢ •

ومعاملة جمع الاناث تارة أخرى فيقال هذه جبال راسية وهذه جبال راسيات وقيل : فيه اشارة الى الجمع بين الأصل والفرع اذ الأصل فى الجمع بالألف والتاء اذا كان واحده مذكرا أن يقتصر فى الوصف على تأنيثه مفردا كقوله تعالى « فيها سرر مرفوعة » وقد يأتى « سرر مرفوعات » على الجمع فهو فرع عن الأول ، فذكر فى « البقرة » على الأصل لكونها أدل وفى آل عمران على الفرع (١٦) .

وهناك ألفاظ لم ترد فى القرآن الا مجموعة واذا جىء بها فى سياق الافراد عدل عن لفظها الى مرادفها وكأن الافراد ينبو عنه النظم كلفظة اللب الذى هو العقل كقوله تعالى : « وليتذكر أولوا الألباب » وقوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » « واتقون يا أولى الألباب » « وما يذكر الا أولوا الألباب » « فاتقوا الله يا أولى الألباب » « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » وغير ذلك مما ورد فى القرآن الكريم ومثال ما عدل عنها فى سياق الافراد الى مرادفها قوله تعالى : « أن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

وقد ذكر ذلك ابن الأثير ولم يعلل له وانما مرده الى الذوق السليم ويرى أن هذه اللفظة « لب » ثلاثية خفيفة على النطق ومخارجها بعيدة ليست مستثقلة ولا مكروهة وقد تابعه فى ذلك صاحب الطراز ولم يزد على ما قاله شيئا بينما وجدنا الرافعى يذكر العلة لذلك وهى تهيئة الانسجام بين حروف اللفظ وتركيبه وتوفير الموسيقى لنظمه وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع ولا فضى الى هذه الشدة الا من اللام الشديدة المسترخية ، فلما لم يكن ثم فصل بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة تحس اللفظة معها

---

(١٦) فتح الرحمن ص ٣٣ .

فأسقطها من نظمه بتة على سعة ما بين أوله وآخره ، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة ، وهذا على أن فيه لفظة « الجب » وهى فى وزنها ونطقها لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة فى الجيم المضمومة (١٧) .

وبعد أن نظرت فى الآيات التى انتظمت فيها لفظة الألباب وطال نظرى وتأملى بدا لى — والله أعلم فيما أراد من كلامه — أن هناك سرا فى اختيار مادتها ، وسرا آخر فى اختيار صيغتها . أما سر اختيار مادتها « اللب » دون « الفهم » و « المعرفة » و « العقل » فان لب كل شىء خالصه وخياره ولب المرء هو قلبه اذ هو خالص ما فى الجسم وأفضله إذ هو بؤرة الحس والشعور ومحل النيات والاعتقادات ومنه تؤمر أعضاء الجسم وتنهى قال ﷺ « ألا إن فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » .

فالقلب أخص من العقل والفؤاد فى الاستعمال فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « أتاكم أهل اليمن هم أرق قلوبا وألين أفئدة » فوصف القلوب بالرقة والأفئدة باللين والآيات التى خوطب الناس بشأنها ونودوا من أجلها مشتملة على آيات ربوبيته وقدرته سبحانه وبديع صنعه فى ملكوته ، وعلى أحكام وتشريعات ، وقصص وعظات بالغات فالمرء عليه أن يدرك هذه الأمور بعقله أولا ثم يترقى فى هذا الادراك ليعيها ويحفظها فى قلبه ويمكنها فيه لتكون نورا له تهديه الى الحق والى الصراط المستقيم ، وتبعده عن الباطل وسبل الضلال ، فلا يكفى أن يعقل المرء هذه الأمور بل يجب أن تكون عقيدة مستقرة فى قلبه ويقينا راسخا فى نفسه .

---

(١٧) اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٣٢ .

فهناك فرق بين ما يفهمه العقل فقط وبين ما يفهمه العقل وينفذ به الى موطن الحس والشعور واليقين وهو القلب فكم من اناس يعرفون بعقولهم آثار قدرة الله فى ملكوته ، وبديع صنعه فى مخلوقاته ولكن هذه المعرفة لم تصل الى محل العقيدة واليقين وهو القلب لتكون محورا ويرتكز عليه عمل الجزء وسلوكه ، وقد اخبرنا القرآن بذلك قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » (١٨) فهو اقرار باللسان وقد عرفه العقل ، ولكنه لم يصل الى القلب فهــو اقرار عاطل لا جدوى منه لأنه لم يترك أثرا فى القلب يجعل المرء يغير من سلوكه ويصلح عقيدته •

وقد نفى الله تعالى الايمان عن الأعراب الذين أقروا بأركــان الاسلام بلسانهم من غير مواطأة قلوبهم لأن الايمان هو التصــديق واليقين الجازم فى القلب مع الثقة وطمأنينة النفس قال تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولــما يدخل الايمان فى قلوبكم » (١٩) •

فدل بهذا على أن حقيقة الايمان لم تستقر فى قلوبهم ولم تشربها أرواحهم فالقلب متى تذوق حلاوة الايمان واطمأن اليه وثبت عليــه لابد مندفع لتحقيق حقيقته فى خارج القلب فى واقع الحياة فى دنيا الناس • يريد أن يوحد بين ما يستشعره فى باطنه من حقيقة الايمان وما يحيط به فى ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة (٢٠) •

وكم من أناس مسلمين يعرفون الحلال والحرام ويميزون بين الخير

---

(١٨) الــزمر ٣٨ •
(١٩) الحجرات : ١٤ •
(٢٠) فى ظلال القرآن ص ٣٣٤٩ •

والشر ولكن سلوكهم يحيد عن هذه المعرفة لعدم تجاوزها الى موطن الاعتقاد واليقين وهو القلب ولم تتشربها أرواحهم .

ولهذا لم نجد تذييلا فى القرآن بلفظ المعرفة أو الفهم وما يشتق منهما هذا — والله أعلم — هو السر فى اختيار مادة : « اللب » فى القرآن دون المعرفة أو الفهم أو العقل .

أما السر فى اختيار صيغتها بالجمع بالاضافة الى ما قاله الأستاذ الرافعى فان فى ذلك دعوة الى الجماعة المؤمنة كلها فالقرآن لا يخاطب فردا وانما يخاطب الانسانية كلها ، ثم ان الحسن والقبيح والخير والشر هو ما أجمعت عليه القلوب الصافية النقية فتحكم بحسنه أو بقبحه ، حتى ان الآية التى عدل بها عن اللب الى القلب مفردا لم يكن مرادا بها واحد وانما هى عامة تشمل كل من له قلب يعى ويدقق ويوقن ويطمئن .

ومن الألفاظ التى وردت فى القرآن الكريم مجموعة ولم ترد مفردة لفظة الكوب فابن الأثير يرى أن الجمع فيها أحسن من الافراد وان لم تكن مستقبحة فى حال افرادها ، ونقول : ان هذه اللفظة وردت فى سياق بيان آنية أهل الجنة التى يتمتعون فيها بالشراب قال تعالى « ويطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين » ، فالمقام يقتضى الجمع بل جمع الكثرة ، ولعل فى تنكيرها ما يفيد التكثير والتعظيم ، فالتكثير مستفاد من صيغة الجمع ومن دلالة التنكير ،ويرى الرافعى أن جمع كوب على أكواب فيه من الظهور والرقة والانكشاف وحسن التناسب فى النطق ما لم يوجد فى المفرد(٢١) .

---

(٢١) اعجاز القرآن للرافعى ٢٣٢ .

ومن الألفاظ التى آثر النظم القرآنى جمعها لفظة « الصوف » فانها وردت فى موضع واحد بلفظ الجمع فى قوله تعـــالى : « ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها آثاثا ومتاعا الى حين » ، وحين احتاج القرآن الى استعمالها مفردة جاء بما يخالفها فى لفظها فأتى بمـــرادف لها فى قوله تعالى : « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » فبدلها لمـــا كانت غير فصيحة فى الافراد .

ويقول صاحب الطراز « فانظر ما بين العهن والصوف من التفاوت فى الذوق والرقة والرشاقة »(٢٢) .

ولفظة « السماء » وردت مجموعة ومفردة فقد وردت فى القرآن ٣١٠ مرة منها ١٢٠ مرة بلفظ السماء مفردا و ١٩٠ مرة بلفظ السموات جمعا بينما ورد لفظ الأرض ومشتقاتها ٤٦١ مرة كلها بلفظ المفرد ولم يذكر لفظ « أرضون » جمعا ولا مرة واحدة(٢٣) .

وهنا يرد على الذهن سؤال وهو : لم جمعوا السماء فقالوا سموات وهلا راعوا فيها ما راعوا فى الأرض فانها مقابلة فما الفرق بينهما ؟

أجاب على هذا السؤال ابن القيم فقال : « لو جمعوا أرضا على قياس جموع التكسير لقالوا آرض كأفلس وآرض كأجمال أو أروض كفلوس فاستثقلوا هذا اللفظ اذ ليس ميه من الفصاحة والعذوبـــة والحسن ما فى لفظ السموات ، وأنت تجد السمع ينبو عنه بقدر ما يستحسن لفظ السموات ولفظ السموات يلج فى السمع بغير استئذان لنصاعته وعذوبته ولفظ الأراضى لا يأذن له السمع الا على كره ولهذا تفادوا من جمعه اذا أرادوه بثلاثة ألفاظ تدل على التعدد كما قال تعالى

---

(٢٢) الطـراز ٤٨/٣ .

(٢٣) القرآن اعجازه وبلاغته للدكتور عبد القادر حسين ص ٨٦ .

« خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن » كل هذا تفاديا من أن يقال آراض وآرض • هذا الفرق من جهة اللفظ وأما الفرق المعنوى فان السماء قد يقصد ذاتها فقط وقد يقصد منها معنى الوصف وهو العلا والرفعة فان قصد بها ذاتها دون الوصف كان المقام للجمع لتعددها اذ المراد السموات السبع ومن فيهن من الملائكة •

واذا قصد بها الوصف بمعنى العلو والرفعة كان المقام للافراد، والأرض على هذا النحو يقصد بها معنى الوصف وهو « التحت والسفل » دون أن يقصد ذواتها وأعدادها وحيث جاءت مقصودا بها الذات والعدد أتى بلفظ يدل على البعد أى البعد عن الجمع المستثقل كقوله : « ومن الأرض مثلهن » •

وجاءت فى آية أخرى قصد بها الذات والعدد وتحاشى النظم القرآنى ذكر العدد أى الجمع للاستثقال ونبو الذوق والسمع عنه ، ودل عليه أى على العدد بلفظه « جميعا » فى قوله تعالى « والأرض جميعا قبضته » فالأرض متبدأ و « قبضته » خبر و « جميعا » حال وهى دالة على أن المراد بالأرض الأرضون والسياق يؤيد هذا لأنه فى مقام التفخيم والتعظيم ، وطلاقة القدرة الالهية ويعطف الجمع عليها « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات » يقول الزمخشرى ومع القصد الى الجمع يعنى فى الأرض وأنه أريد به الجمع وأكده بالجمع أتبع الجميع مؤكدة قبل مجىء الخبر ليعلم أول الأمر أن الخبر الذى يرد لا يقع عن أرض واحدة ، ولكن عن الأرض كلها(٢٤) •

ومن أمثلة ما جاءت السماء مقصودا منها الوصف وهو العلو والرفعة قوله تعالى : « أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض

---

(٢٤) الكشاف ٤٠٩/٣ •

فاذا هى تمور أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا » كيف أفردت هنا لما كان المراد الوصف الشامل والفوق المطلق ولم يرد سماء معينة مخصوصة وقوله تعالى : « فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون » ارادة لهذين الجنسين أى رب كل ما علا وكل ما سفل فلما كان المراد عموم ربوبيته أتى بالاسم الشامل لكل ما يسمى سماء وكل ما يسمى أرضا .

وجاءت مقصودا منها ذاتها ومن فيهن من الملائكة فجمعت فى قوله تعالى : « يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض » فى جميع الصور لما كان المراد الاخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم وتباين مراتبهم لم يكن بد من جمع محلهم ونظير هذا جمعها فى قوله « وله من فى السموات ومن فى الأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون » وكذلك جاءت مجموعة فى قوله « تسبح له السموات السبع » اخبارا بأنها تسبح له بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها وأكد هذا المعنى بوصفها بالعدد ولم يقتصر على السموات فقط بل قال : « السبع » .

وكل ما أخبر عنه سبحانه من نزول الرزق الحسنى من السماء أو أسبابه من نزول الغيث يراد منها الوصف أى العلو والرفعة دون ارادة معنى الذات والتعدد كما فى قوله تعالى : « وفى السماء رزقكم وما توعدون » فالرزق : المطر وما وعدنا به : الجنة وكلاهما فى هذه الجهة لا أنهما فى كل واحدة من السموات فكان لفظ الافراد أليق بها . ولكن قد ورد لفظ السماء فى سياق نزول الرزق مرة مفردا ومرة جمعا الافراد فى قوله تعالى فى سورة يونس « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار » والجمع فى سورة

حسبا فى قوله تعالى « قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله » فما الفرق بين الآيتين ؟

ونقول : أن الآيتين وردتا فى سياقين مختلفين فالآية الأولى وردت فى سياق الاحتجاج عليهم بما هو مشاهد أمامهم ولا يمكنهم انكاره من كون الرب رازقهم ومالك أسماعهم وأبصارهم لأن نزول الرزق من قبل هذه السماء التى يشاهدونها بالحس أمر لا يمكنهم جحده ولذلك كان جوابهم مباشرة الاقرار بأن فاعل هذا هو الله « فسيقولون الله » فهو رزق حسى وهو نزول المطر من السماء لأنه ينزل من السحاب وهو يسمى سماء لعلوه فالمقام اذن يناسبه الافراد أما الآية الثانية فالمراد من الرزق فيها هو الرزق الحسى والمعنوى فهو أعم من الأولى الرزق الحسى للأبدان والمعنوى للقلوب والأرواح وهو ما يتنزل من السموات من الوحى والرحمة والألطاف والموارد الربانية والتنزلات الالهية ، ولا شك أن هذا الرزق يتنزل من السموات السبع على أيدى الملائكة الكرام فالمقام اذن يناسبه الجمع ، ولما كان القوم المخاطبون غير مقرين بنزول الرزق المعنوى من السموات السبع لم يترك لهم الجواب بل أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها فقال : « قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله » ولم يقل كما قال فى الأولى: «سيقولون الله »(٢٥) .

ويرى الامام أبو يحيى الأنصارى أن السماء جمعت دون الأرض للانتفاع بجميع آحادها باعتبار ما فيها من نور كواكبها وغيره بخلاف الأرض انما ينتفع بواحدة من آحادها وهى ما نشاهده : منها(٢٦)

---

(٢٥) بدائع الفوائد لابن القيم ١/١١٧ ، ١١٨ بتصرف .
(٢٦) فتح الرحمن ص ٤٨ .

ويرى القرطبى أن السماء جمعت لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى ووحد الأرض لاتحاد جنسها لأنها كلها تراب(٢٧) وهذا قريب مما قاله ابن القيم ففى قوله تعالى : « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله » جمعت السماء هنا لأن المراد نفى علم الغيب عن كل من هو فى واحدة واحدة من السموات أى أن المراد نفى علم الغيب عن كل من فى أجناسها .

فاذا أريد بها الذات قصد منها التعدد أى تعدد أجناسها واذا أريد بها الوصف قصد بها الجنس المطلق وهو كل ما علا وارتفع ، وفى قوله تعالى : « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم » .

أتت مجموعة هنا لحكمة ظاهرة وهى تعلق الظرف بما فى اسمه تبارك وتعالى من معنى الالهية فالمعنى وهو الاله وهو المعبود فى كل واحدة واحدة من السموات(٢٨) فأخبر عن سعة ملكه ومحله وهو السموات كلها والأرض وكثرة عابديه فى كل منهما وسعة علمه بالسر والجهر لكل من فى السموات والأرض . وهذا يناسبه الجمع .

الرياح — والريح :

من الألفاظ التى وردت فى القرآن الكريم مفردة وجمعا لأسرار بلاغية الريح والرياح فحيث كانت فى سياق الرحمة أتته

---

(٢٧) تفسير القرطبى ٥٧٣/١ .
تفسير الشعراوى ٧٠٥/٩ .
(٢٨) بدائع الفوائد ١١٦/١ .

مجموعة وحيث وقعت في سياق العذاب أتت مفردة . بين السر في ذلك الامام ابن القيم فقال : ان رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهاب والمنافع ، واذا هاجت منها ريح أنشأ لها ما يقابلها وما يكسر سورتها ويصدق حدتها فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات فكل ريح منها فى مقابلها ما يعد لها ويرد سورتها فكانت فى الرحمة ريحا وأما فى العذاب فانها تأتى من وجه واحد لا يقوم لها شيء ولا يعارضها غيرها حتى تنتهى الى حيث أمرت لا ترد سورتها ولا تكسر شدتها فتمتثل ما أمرت به وتصيب ما أرسلت اليه ، ولهذا وصف ــ سبحانه ــ الريح التى أرسلها على عاد أنها عقيم فقال « وفى عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » (الذاريات : ٤١)(٢٩) .

ويذكر القرطبى سرا بلاغيا قريبا مما قاله ابن القيم فيقول : « أفردت ريح العذاب لأنها شديدة ملتئمة الأجزاء كأنها جسم واحد »(٣٠) ومرجع شدتها أنها أرسلت من جهة واحدة لتصيب قوما أو تهلكهم بقدرة الله تعالى وقضاء أمره فلابد من نفاذه ، ومن ثم لا تعارضها ريح أخرى فتكسر من حدتها أو تقلل من عصفها الى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وهناك سر آخر فى دلالة الرياح بالجمع على الخير يفهم من قوله تعالى وهو يعدد نعمه لعباده « وتصريف الرياح » ومعنى التصريف هو التحويل والتغيير أى توجيه الرياح الى نواح مختلفة سواء الى الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب ، وهذا الاختلاف لم يجعل للهواء مسارا رتيبا ، وعندما نتأمل عملية الاستطراق فى

---

(٢٩) المرجع السابق ٢١٨/١ .

(٣٠) تفسير القرطبى ٥٧٩/١ .

الهواء نجد أنها تعطى اعتدالا مزاجيا للهواء فمـرة يأتى من ناحيـة حارة ليهب على المناطق الباردة فيكسر من حدة البرد ، ومرة يأتى من المناطق الباردة فيهب على المناطق الحارة فيخفف من شدة الحرارة ، وهذا التصريف نعمة من نعم الله فالجمع اما باعتبـار اختلاف مسار الرياح من جهات متعددة مما يؤدى الى تقابلها وكسر حدتها أو باعتبار نوعها من حيث الجهة التى تهب منها فتكون رياحا حارة أو رياحا باردة رطبـة أو جافة(*) •

وبالاستقراء والتتبع لآيات القرآن الكريم التى وردت فيها هذه اللفظة فى حالى الافراد والجمع وجدنا أن الريح اذا وقعت فى سياق الرحمة جاءت مجموعة ، واذا وقعت فى سياق الشدة والعذاب جاءت مفردة ولم يشذ هذا الاستقراء الا فى آية واحدة فى سورة يونس

وهى قوله تعالى : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجـرين بهم بريح طيبـة وفرحوا بهـا جاءتها ريـح عاصـف »(٣١) •

فقد ذكر فى الآية « ريح » بالافراد مع الرحمة فقال « بريح طيبة » يعلل ابن القيم(٣٢) لذلك فيقول : « لأن تمام الرحمة هنـاك — أى فى البحر — انما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها فان السفينة لا تسير الا بريح واحدة من وجه واحد سيرها ، فاذا اختلفت عليهـا الرياح وتصادمت وتقابلت كان ذلك سببا فى تلاطم الأمواج فيضطرب سير السفينة فتتقاذفها الأمواج هنا وهناك مما يؤدى الى الهلاك ،

(*) تفسير الشعراوى ٩/٧٠٥ •
(٣١) سورة يونس آية رقم ٣٢ •
(٣٢) بدائع الفوائد •

فالمطلوب هنا ريح واحدة لا رياح — وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب احتراسا ودفعا لتوهم أن تكون ريحا عاصفة بل هى مما يفرح لطيبها •

ومما يؤيد ما ذكرناه أنه لما وصف الريح اللينة بالطيب جاء بما يقابلها بالريح المدمرة شديدة الهبوب ووصفها بالعاصف وهو وصف خاص بالريح ولذلك لم تلحقه علامة تأنيث بخلاف وصف ريح الخير بالطيب فقد لحقتها علامة التأنيث « وجرين بهم بريح طيبة » لأنها ليست وصفا خاصا للريح •

وهناك آية أخرى فى سورة « ص » وردت مفردة فى سياق الرحمة ، فى قوله تعالى : « فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب » ووصفت الريح بأنها « رخاء » أى لينة لا زعزعة فى هبوبها « فرخاء » انتصبت على الحال من ضمير تجرى ، والحال وصف فى المعنى وقد وصف الله قبل ذلك فى سورة الأنبياء « الريح » بأنها عاصفة فى قوله تعالى : « ولسليمان الريح عاصفة » فآية سورة «ص» مبينة لمعنى تسخير الريح لسليمان •

والمعنى : سخرنا لسليمان الريح التى من شأنها العصوف فذللناها له لتكون ريحا لينة لا زعزعة فى هبوبها وفى وصفها بقوله : « تجرى بأمره » دليل على أن عصفها يصير الى لين بأمر سليمان أى بدعائه أو بعزمه ورغبته لأنها لا تصلح له أن تكون عاصفة بحال من الأحوال فوصف الريح بالعصف يناسب افرادها لأن الريح العاصفة تكون سببا فى وقوع العذاب والهلاك لشدتها ولعدم وجود ما يعارضها من رياح أخرى فأراد الله تعالى أن يجعل من هذه الريح العاصفة المدمرة ريحا لينة ذلولة منقادة لأمر سليمان عليه السلام ثم ان هذه الريح التى سخرها الله لسليمان هى الريح التى تأتى من وجه واحد لا يعارضها غيرها وهى الريح العاصف وذلك حتى يتم التسخير والانقياد لسليمان

عليه السلام حيث جعلت مطية له وذلك يقتضى أن تجرى فى اتجـاه واحد لا يعارضها شىء ولا يعوق جريها ريح أخرى مقابلة لها .

ولذلك وصفت بأنها « رخاء » دفعا لتوهم أن تكون شديدة عاصفة وانما هى لينة ومع لينها فهى سريعة بحيث يكون لسليمان عليه السلام السعة فى تصريفها فيذهب بها حيث يشاء .

ولنأت بطائفة من الآيات التى وردت فيهـا الريح مجموعة فى سياق الرحمة . قال تعالى : « وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض » (البقرة : ١٦٤) . « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته » (الأعراف : ٥٧) « وأرسلنا الرياح لواقح » (الحجر : ٢٢) . « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات » (الروم : ٤٦) . « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا » (الروم : ٤٨) .

ومن الآيات التى ذكرت فى سياق العذاب فأتت فيها الريح مفردة قوله تعالى « فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات » (فصلت ١٦) . « فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها » (الأحزاب : ٩) . « وأما عـاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » (الحـاقة : ٦) . « وفى عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم »(الذاريات : ٤١) «بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم » (الأحقاف : ٢٤) . « كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم » (آل عمران ١١٧) . وغـير ذلك من الآيـات .

الظلمات والنور : سبل الباطل وسبيل الحق — الشمائل واليمين هذه ألفاظ وردت فى القرآن منها ما ورد مفردا ومنها ما ورد مجموعا ولكل مقام يخصه ، ويفهم فيه أسرار ولطائف .

فالظلمات ذكرت فى القرآن مجموعة والنور ذكر مفردا قال تعالى : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » (الأنعام : ١ » .

وورد أيضا « سبل الباطل » مجموعة ، وسبيل الحق مفردا قال تعالى « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » (الأنعام : ١٥٣) وجمع الله تعالى جهة « الشمائل » وأفرد جهة « اليمين » قال تعالى : أو لم يروا الى ما خلق الله من شىء يتفيأوا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون » .

يقول جار الله الزمخشرى عند تفسيره لقوله تعالى : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » : فان قلت : لم أفرد النور ؟ قلت : للقصد الى الجنس كقوله تعالى : « والملك على أرجائها » (الحاقة : ١٧) أو لأن الظلمات كثيرة لأنه ما من جنس من أجناس الأجرام الا وله ظل ، وظله هو الظلمة بخلاف النور فانه من جنس واحد وهو النار »(٣٣) .

فالزمخشرى أشار فى تعليقه هذا الى أن الظلمات جمعت لتعدد مصادرها وهى كل أجناس الأجرام الموجودة فى الوجود ، لأن الظلمة عرض وهى لا تقوم بذاتها ، والنور مصدره واحد وهو النار ، ولم يرتض هذا التعليل الشيخ الطاهر ابن عاشور مبينا أن القرآن الكريم انما جمع « الظلمات » وأفرد « النور » اتباعا للاستعمال ، لأن لفظ « الظلمات » بالجمع أخف ، ولفظ النور بالافراد أخف ولذلك لم يرد لفظ « الظلمات » فى القرآن الا جمعا ، ولم يرد لفظ النور الا مفردا؟

---

(٣٣) الكشاف ٢/٣ .

وهما معا دالان على الجنس والتعريف الجنسى يستوى فيه المفرد والجمع فلم يبق للاختلاف سبب الا اتباع الاستعمال خلافا لما فى الكشـــاف(٣٤) ٠

فابن عاشور أرجع العلة فى ذلك أى فى جمع الظلمات وافراد النور وان كانا مستويين من حيث دلالتهما على الجمع الى أمر ذوقى وهو أن الذوق يستشعر الخفة فى جمع الظلمات وافراد النور والى اتباع منهج العرب فى الاستعمال وعلى أية حال فاننا لا نقلل من تعليل الزمخشرى فهو تعليل مقبول منتزع من الواقع المشاهد ، ولا نقلل أيضا من تعليل الشيخ الطـاهر ابن عاشـور فكلاهما مجتهـد فى التـأويل واستخراج العلل على كل حال ٠

وكما قلنا قبل ذلك ان النكات البلاغية لا تتزاحم ولكل وجهة هو موليها فالشيخ ابن عاشور اكتفى بما قاله الجاحظ حين التفت الى هذه الظاهرة فى أسلوب القرآن الكريم حين قال : « وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، ولفظ القرآن الذى نزل عليه أنه اذا ذكر « سبع سموات » لم يقل : « الأرضين » ألا تراه لا يجمع الأرض على «أرضين» ولا «السمع» على « أسماع »(٣٥)٠

أما ابن القيم فقد ذكر كلاما طيبا فى التماس العلة لهذه الظاهرة وبيان أسبابها وقد هداه الى ذلك ما هو متبع فى منهجه فى تفسـير القرآن بالقرآن أو بالسنة النبوية الشريفة أى بالمأثور ، وليس هذا هو كل منهجه فى تفسير القرآن بل له اجتهادات وتأويلات فى الكشف عن أسرار نظم القرآن الكريم وبيان دقة تعبيره ٠

---

(٣٤) التحـرير والتنـوير ٠

(٣٥) البيـان والتبيين ١/٤٠ ٠

يقول ابن القيم : بعد أن ذكر الآيات السابقة فى جمع «الظلمات»، وافراد «النور» وجمع سبل الباطل وافراد سـبيل الحـق ، وجمع الشمائل وافراد اليمين يقول : والجواب عنها يخرج من مشكـاة واحدة وسر ذلك — والله أعلم — أن طريق الحق واحد كما قال تعالى : « هذا صراط على مستقيم » ونظيره قوله : « وعلى الله قصد السبيل » أى السبيل القصد الذى يوصل الى الله ، والمقصود : أن طريق الحق واحد اذ مرده الى الله الملك الحق ، وطرق الباطل متعددة ومتشعبة فانهـا لا ترجع الى شىء موجود ولا غاية لها يوصل اليها •• وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل الى المقصود ، فهى وان تنوعت فأصلها طريق واحـد •

ولمـا كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل ، والنور بمنزلة طريق الحق افرد النور وجمعت الظلمات ، وعلى هذا جاء قوله تعالى « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات »(٣٦) فوحـد ولى الذين آمنوا وهو الله الواحد الأحد وجمع الذين كفروا لتعددهم وكثرتهم وجمع الظلمات وهى طرق الضلال والغى لكثرتها واختلافها ووحد النور وهو دينه الحق وطريقه المستقيم الذى لا طريق اليه سواه قال تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » (الأنعام : ١٥٣) •

فوحد الصراط وأضافه اليه لافادة تعينه واختصاصه ، ووصفه بالاستقامة يتضمن قربه ، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين وكلما تعوج طال وبعد ، وأما طرق أهل الغضب والضـلال فانه سبحانه يجمعهـا •

---

(٣٦) سـورة البقـرة الآية ٢٨٨ •

فابن القيم استند فى هذا التفسير الى ما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « خط لنا رسول الله ﷺ خطا وقال : هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن يساره ، وقال : هذه سبل ، وعلى كل سبيل شيطان يدعو اليه ثم قرأ الآية « وأن هذا صراطى .. » .

ولما كانت « اليمين » جهة الخير والفلاح وأهلها هم الناجون أفردت ولما كانت « الشمال » جهة أهل الباطل وهم أصحاب الشمال جمعت فى قوله : « عن اليمين والشمائل » (النحل : ٤٨) .

وقيل ان « الشمائل » جمعت فى الظلال وأفرد « اليمين » لأن الظل حين ينشأ يكون فى غاية الطول يبدو كذلك ظلا واحدا من جهة اليمين ثم يأخذ فى النقصان ، وأما اذا أخذ فى جهة الشمال فانه يتزايد شيئا فشيئا ، والثانى منه غير الأول .. فصار كل جزء منه كأنه ظل فحسن جمع الشمائل فى مقابلة تعدد الظلال ، وهذا معنى جيد بل هو الأحق أن نأخذ به اذ هو الأنسب لمعنى الآية والألصق بسياقها لأنها انما سبقت لبيان قدرة الله فى خلق ظلال الأشياء ، ودعوة الخلق الى تأملها ، ولم يرد ذكر لأهل الباطل أو الضلال .

ولما كان فى القرآن آيات جاءت فيها لفظة الشمال مفردة كقوله تعالى : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال » وقوله تعالى : « عن اليمين وعن الشمال قعيد » (ق : ١٧) وجاءت لفظة اليمين مجموعة فى قوله تعالى : « ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم » (الأعراف : ٧٧) .

فابن القيم بين الأسرار التى دعت الى هذا التعبير فقال : جاءت الشمال مفردة فى الآية الأولى لأن المراد أهل هذه الجهة ومصيرهم ومآلهم الى جهة واحدة وهى جهة الشمال مستقر أهل النار ولأن الطرق الباطلة وان تعددت فغايتها الى طريق الجحيم وهى جهة الشمال وجاءت

مفردة أيضا فى الآية الثانية لأنه لمـا كان المراد أن لكل عبد قعيدين قعيدا عن يمينه وقعيدا عن شماله يحصيان عليه الخير والشر فلا معنى للجمع هنـا .

وجاءت لفظة اليمين مجموعة فى الآية الثالثة لأن الجمع هنا فى مقابلة من يريد الشيطان اغواءهم فكأنه أقسم أن يأتى كل واحد واحد من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، ولا يحسن هنا عن يمينهم وعن شمالهم بل الجمع هنا فى مقابلة الجملة بالجملة المقتضى توزيع الأفراد ، ونظيره : « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق » (المـائدة : ٦)(٣٧) .

المشرق والمغرب وتثنيتهما وجمعهما :

تأتى لفظة المشرق والمغرب فى القرآن مرة مفردة كما فى قوله تعالى : « رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا » (المزمل : ٩) وتارة تأتى مثناة كما فى قوله تعالى «رب المشرقين ورب المغربين» (الرحمن : ١٧) وتأتى جمعا كما فى قوله تعالى : « فلا أقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون » (المعارج : ٤٠) وقد تأتى لفظة المشارق فقط ويحذف مقابلها « المغارب » فما الأسرار البلاغية التى تفهم من هذا الأسلوب فى مواقعه المتعددة ؟

يقول شيخ الاسلام أبو يحيى زكريا الأنصـارى : ان القرآن الكريم نزل على المعهود من أساليب كلام العرب وفنونه ومنها : الاجمال والتفصيل ، والذكر والحذف والجمع والتثنية والافراد باعتبـارات

---

(٣٧) بدائـع الفـوائد ١٢٠/١ .

مختلفة فأفرد وأجمل فى المزمل بقوله : « رب المشرق والمغرب » أراد مشرق الصيف والشتاء ومغربهما .

وقال ابن القيم ان المراد من الافراد : أفقا المشرق والمغرب أى جهة كل منهما التى ترى فى الافق ، وثنى وفصل فى الرحمن بقولـــه « رب المشرقين ورب المغربين أراد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما وفصل ابن القيم ما قاله الأنصارى بقوله : وحيث ثنيا كان المراد مشرقى صعودها وهبوطها ومغربيهما فانها تبتدىء صاعدة حتى تنتهى الى غاية أوجها وارتفاعها ، فهذا مشرق صعودها وينشا منه فصلا الخريف والشتاء فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقا واحدا ومشرق هبوطها بجملته مشرقا واحدا ويقابلها مغرباها وجمع المشارق والمغارب لارادة تعدد مشارق الشمس ومغاربها بتعدد الأيام فلها ثلثمائة وستون مشرقا ولها نفس العدد مغربا وقيـــل لها ثلثمائة وخمســـة وســـتون مشرقا ومثلها مغربا على عدد أيام السنة الشمسية تطلع فى كل يوم فى كوة منهـــا وتغيب فى كوة(٣٨) .

وذكر المشارق فقط فى الصافات قيل : للاكتفاء بذكر أحدهما فان فى ذكره دليلا على حذف الآخر أى و « رب المغارب » كقوله تعالى « سرابيل تقيكم الحر » أى والبرد فحذف البرد اكتفاء بذكر الحر .

أما وجه مناسبة ذكر كل موضوع من الافراد والتثنية والجمع ووقوعه فى سياقه واختصاصه به فقد ذكر ابن القيم كلاما دقيقا كشف فيه عن دقة السياق فى ايثار صيغة على الأخرى ، ورأى أنها فى مكانها الذى لا يصلح فيه غيرها .

فيقول : « وأما اختصاص كل موضع بما وقع فيه فلم أر أحدا

---

(٣٨) تفسير القرطبى ٨/٥٥٠٧ .

يتعرض له ولا فتح بابه وهو يحمد الله بين من السياق ، وهذا ينم عن اعتزازه بعلمه وثقته بنفسه .

ثم يقول : « فتأمل وروده مثنى فى سورة الرحمن لما كان مساق السورة مساق المثانى المزدوجات فذكر أولا نوعى الايجاد وهما الخلق والتعليم ، ثم ذكر سراجى العالم ومظهرى نوره وهما الشمس والقمر ثم ذكر نوعى النبات ما أقام منه على ساق ، وما انبسط منه على وجه الأرض وهما : « النجم والشجر » ثم ذكر نوعى السماء المرفوعة والارض الموضوعة وأخبر أنه رفع هذه ووضع هذه ، ووسط بينهما ذكر الميزان ، ثم ذكر العدل والظلم فى الميزان فأمر بالعدل ونهى عن الظلم ثم ذكر نوعى الخارج من الأرض وهما : « الحبوب والثمار » ثم ذكر خلق نوعى المكلفين وهما : « نوع الانسان ونوع الجان » ، ثم ذكر نوعى المشرقين ونوعى المغربين ، ثم ذكر بعد ذلك البحرين : الملح والعذب .

فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب فى هذه السورة وجلالة ورودهما لذلك وقدر موضعهما اللفظ مفردا أو مجموعا تجد السمع ينبو عنه ويشهد العقل بمنافرته للنظم .

ويبين وجه التناسب فى ورودهما مفردين واختصاصهما بهذا الموضع فى سورة المزمل فيقول : « وتأمل ورودهما مفردين فى هذه السورة لما تقدمها ذكر الليل والنهار فأمر رسوله بقيام الليل ، ثم أخبره أن له فى النهار سبحا طويلا ، فلما تقدم ذكر الليل وما أمر به فيه ، وذكر النهار وما يكون منه فيه عقبه ذلك بذكر المشرق والمغرب اللذين هما مظهر الليل والنهار ، فكان ورودهما مفردين فى هذا السياق أحسن من التثنية والجمع لأن ظهور الليل والنهار هما واحد فالنهار أبدا يظهر من المشرق ، والليل أبدا يظهر من المغرب .

ويقول : ثم تأمل مجيئهما مجموعين فى سورة المعارج فى قوله « فلا أقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين » لما كان هذا القسم فى سياق سعة ربوبيته واحاطة قدرته ، والمقسم عليه أذهاب هؤلاء والاتيان بخير منهم ذكر المشارق والمغارب لتضمنهما انتقال الشمس التى هى أحد آياته العظيمة الكبيرة ونقله — سبحانه — لها وتصريفها كل يوم فى مشرق ومغرب فمن فعل هذا كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء ، وينقل الى أمكنتهم خيرا منهم .

وأيضا فان تأثير مشارق الشمس ومغاربها فى اختلاف أحوال النبات والحيوان أمر مشهور ، وقد جعل الله تعالى ذلك بحكمته سببا لتبدل أجسام النبات وأحوال الحيوان وانتقالها من حال الى غيره ، وتبدل الحر بالبرد ، والبرد بالحر ، والصيف والشتاء الى سائر تبدل أحوال الحيوان والنبات والرياح والأمطار والثلوج وغير ذلك من التبدلات والتغيرات الواقعة فى العالم بسبب اختلاف مشارق الشمس ومغاربها فكيف لا يقدر مع ما يشهدونه من ذلك على أن يبدل خيرا منهم وأكد هذا المعنى بقوله : « وما نحن بمسبوقين » — فلا يليق بهذا الموضع سوى الجمع .

ثم تأمل كيف جاءت أيضا فى سورة الصافات مجموعة فى قوله « رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق » (الصافات : ٥) لما جاءت مع جملة المربوبات المتعددة ، وهى السموات والأرض وما بينهما كان الأحسن مجيئها مجموعة لينتظم مع ما تقدم من الجمع والتعدد .

ثم ذكر السر فى اقتصارها على لفظ المشارق دون المغارب مبينا أن المقام يقتضى ذلك ، فان المشارق مظهر الأنوار ، وأسباب انتشار

الحيوان وحياته وتصرفه ومعاشه وانبساطه فهو انشاء مشهود فقدمه بين يدى الرد على منكرى البعث .. وكان الاقتصار على ذكر المشارق ههنا فى غاية المناسبة للغرض المطلوب(٣٩) .

وفى الآية وجه آخر من التناسب لما يعقب هذه الآية من الحديث عن الزينة فى قوله تعالى : « ان زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » اذ الزينة انما تكون غالبا بالضياء والنور ، وهما ينشئان من المشرق لا من المغـــرب(٤٠) .

درجة — ودرجـــات :

فى قوله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منـــه ومغفرة ورحمـــة وكان الله غفورا رحيما » حكم الله تعالى بعدم الاستواء بين القاعدين غير أولى الضرر والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ثم فضل المجاهدين على القاعدين درجة ، وكل منهما المفضل والمفضل عليه وعد الحسنى وهى الجنة ثم ذكرت الآية بعد ذلك فضل المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ، وبين هذا الأجر بأنه درجات منه ومغفرة ورحمة.

وهنا نتساءل من المفضل ومن المفضل عليه فى الآيتين ؟ وما المراد من الدرجة والدرجات وما سر افرادها أولا وجمعها ثانيا ؟

والاجابة على هذا نقول : اختلف المفسرون فى ذلك ؛ فلنذكر آراءهم بايجاز ثم نرجح ما نراه أنسب للمقام .

---

(٣٩) بدائع الفـوائد ١/١٣٢ ، ١٣٣ .

(٤٠) فتـح الرحمن ص ٤٧٧ .

ذهب بعض المفسرين الى أن القاعدين الأضراء متساوون فى الأجر والدرجة مع المجاهدين فى سبيل الله استنادا الى ما يفهم من نفى التساوى بين القاعدين غير أولى الضرر والمجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم واستنادا الى ما روى فى الحديث الشريف عن النبى ﷺ عند انصرافه من بعض غزواته أنه قال : « لقد خلفتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم أولئك أقوام حبسهم العذر » .

وقوله ﷺ « اذا مرض العبد قال الله عز وجل اكتبوا لعبدى ما كان يعمله فى الصحة الى أن يبرأ ، وعلى هذا يكون المراد من قوله : « القاعدين » فى قوله تعالى « فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة هم القاعدون غير أولى الضرر المذكورون فى أول الآية .

ويكون المراد بقوله : « وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما » هم القاعدون أيضا غير أولى الضرر فذكرهم ثانية لمزيد البيان والمبالغة والتوكيد والتوسعة فى العرض والزيادة فى الترغيب ، وعلى هذا تكون « درجة » بالافراد مساوية لمفاد « درجات » بالجمع لأن الافراد يفيد الجنس المعنوى الذى لا افراد له ، وتنوينه يفيد التعظيم .

وعلى هذا يكون المفضل والمفضل عليه فى الآيتين واحدا المفضل هم المجاهدون فى سبيل الله والمفضل عليه هم القاعدون غير أولى الضرر .

ويرى بعضهم أن « درجة » بالافراد تختلف فى معناها عن « درجات » بالجمع ، فالدرجة لبيان فضل المجاهدين على القاعدين أولى الضرر ، وذلك لاشتراكهم فى النية وتفضيل المجاهدين عليهم أى على القاعدين الأضراء بمباشرة العمل بدليل أن الله تعالى قال : « وكلا وعد الله الحسنى » وعلى هذا يكون المفضل عليه أولا غير المفضل عليه ثانيا اذ المفضل عليه أولا هم القاعدون أولو الضرر ، والمفضل عليه ثانيا هم

بالقاعدون غير أولى الضرر وعلى هذا تكون جملة « فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة » للاستئناف لأن الله تعالى لما حكم بالتفاوت بين المجاهدين ، والقاعدين غير الأضراء فكأن سائلا قال : فما حال المجاهدين بالنسبة الى الأضراء وغيرهم مكان قوله أولا : « فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة » أى القاعدين الأضراء ، « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات ... » جوابا على هذا السؤال المقدر ويكون المراد بالقاعدين هنا غير الأضراء ممن لا عذر لهم فيكون التفاوت بينهم كثيرا فيناسبه الجمع .

وذهب بعضهم الى أن المراد من الدرجة بالافراد هى الدرجة فى الدنيا ، ويكون آراد بالفضل الأول ما خولهم فى الدنيا من الظفر والغنيمة وجميل الذكر ، وبالفضل الثانى ما يتخولهم فى الآخرة من الفوز بالجنة ونعيمها المقيم ، ونبه بافراد الدرجة فى الأول وجمعها فى الثانى على أن ثواب الدنيا فى جنب ثواب الآخرة يسير ، وعلى هذا يكون افرادها وتنكيرها للتقليل ، وجمعها وتنكيرها للتكثير والتعظيم .

ونقول : ان الآية اشتملت على الاجمال والتفصيل والتقييد والاطلاق ، والتدرج والترقى أما اشتمالها على الاجمال والتفصيل فقد أجملت الآية فى صدرها فضل المجاهدين على القاعدين غير أولى الضرر بنفى الاستواء بينهما .

ثم بينت وفصلت فضل المجاهدين أولا على القاعدين الأضراء وفضلهم ثانيا على غير الأضراء ممن لا عذر لهم أما اشتمالها على التقييد والاطلاق فقد قيد المجاهدين أولا بالأموال والأنفس وأطلقهم ثانيا . فيكون المراد من يكون مجاهدا على الاطلاق فى كل الأمور يعنى فى عمل الظاهر وهو الجهاد بالنفس والمال ، وفى عمل القلب وهو صرف القلب عن الالتفات الى غير الله الى الاستغراق فى طاعة الله وهو

أشرف لأنواع الجهاد وكما قال عليه الصلاة والسلام «رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر» .

فلما كان هذا المقام أعلى مما قبله لا جرم جعل فضيلة الأول درجة وفضيلة الثانى درجات . وفى تقديم الأموال على الأنفس هنا تتناسب مع السياق اذ ان النص القرآنى يواجه بعض أولئك المسلمين الذين تخلفوا عن الهجرة الى دار الاسلام وفضلوا البقاء فى دار الكفر احتفاظا بأموالهم اذ لم يكن المشركون يسمحون لمهاجر أن يحمل معه شيئا من ماله هذا بالاضافة الى أن الآية السابقة وهى قوله تعالى : « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة .. » (النساء : ٩٤) .

هذه الآية بينت مدى حرص المسلمين على المال وطمعهم فى الغنيمة وهذا أدى الى تسرعهم فى الحكم على من ألقى اليهم السلام بقولهم « لست مؤمنا » وكان معه غنم له ، هذا كله يتناسب مع تقديم المال على النفس فى قوله تعالى فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة .

أما الترقى والتدرج فى الآية ففيها انتقال من الابهام والاجمال الى البيان والتفصيل وفى البيان انتقال من الخاص أى الجهاد بمعناه الخاص حيث قيد بالنفس والمال الى الجهاد بمعناه العام حيث أطلق ولم يقيد ففيها تدرج وترق من الابهام الى البيان ومن الخاص الى العام ومن الافراد الى الجمع .

دارهم — وديارهم :

اقتضى السياق أن يأتى بلفظ الدار مفردا مرتين فى الأعراف ومرة واحدة فى العنكبوت بينما وردت فى هود مرتين بالجمع .

قال تعالى فى قصة صالح وفى قصة شعيب فى الأعراف : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » .

وأيضا فى قصة شعيب فى العنكبوت ، وقد جمعت فى سورة هود فى قصة صالح فى قوله تعالى : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » فنراها أفردت مع الرجفة وجمعت مع الصيحة ما السر فى ذلك ؟

يقول الأنصارى : الافراد يتناسب مع الرجفة أى الزلزلة وهى تختص بجزء من الأرض ، والجمع يتناسب مع ذكر الصيحة لأنها من السماء وهى زائدة على الرجفة(٤١) .

فبلوغها أكبر وأبلغ من الزلزلة فذكر كل واحد بالأليق به .

ونقول : قد يقصد من الافراد فى « دارهم » معنى بلدهم ، وقد يقصد من الجمع فى « ديارهم » معنى منازلهم ، والرجفة تتناسب مع الافراد بهذا المعنى لأن الرجفة هى الزلزلة والاضطراب والحركة الشديدة ، وهذا يقتضى تحرك القوم واضطرابهم ومن ثم لا يلزم منه جثومهم فى منازلهم ، وانما يغلب أن يكون الجثوم خارج منازلهم أو فى منازل بعضهم البعض ومن ثم صح اطلاق الدار بمعنى البلد .

وأما الصيحة وهى الصوت الشديد الذى يفجأهم فيفزعهم فتضطرب منه قلوبهم مما يؤدى الى هلاكهم ، وهذا يغلب عليه أن تكون الصيحة فى وقت سكون الليل والقوم فى منازلهم مما يؤدى الى أن يكون الجثوم فى منازلهم . ومن ثم صح اطلاق الديار بمعنى المنازل أى جثوم كل واحد منهم فى منزله الخاص به .

---

(٤١) فتح الرحمن ص ١٩٨ .

وفي قوله تعالى : « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين » تنوع الخطاب والأمر بالتثنية أولا في قوله : « تبوءا » والجمع ثانيا في قوله : « واجعلوا .. وأقيموا » والافراد ثالثا في قوله : « وبشر المؤمنين » .

كيف التأم انتظم بهذا الخطاب المتنوع ؟

يجيب ابن القيم على هذا بقوله : « هو من أحسن النظم وابدعه فانه ثنى أولا اذ كان موسى وهارون هما الرسولان المطاعان ، ويجب على بني اسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء واذا تبوءا البيوت لقومهما فهم تبع لهما ، وهذا التفسير لابن القيم يشير الى المجاز العقلي ولم ينقصه الا ذكر المصطلح البلاغي لأنه ينكر المجاز ويسميه «الطاغوت» .

وقد صرح بالمجاز في هذه الآية الشيخ الطاهر بن عاشور حيث قال : وفاعل هذا الفعل في الأصل هو الساكن بالمباءة ، وانما أسند هنا الى ضمير موسى وهارون — عليهما السلام — على طريقة المجاز العقلي ، اذ كانا سبب تبوؤ قومهما للبيوت . والقرينة قوله « لقومكما » اذ جعل التبوؤ لأجل القوم على منوال قوله تعالى « وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا » وجمع الضمير فقال : « واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة » .

ثانيا : لأن هذا الخطاب بشأن حكم تشريعي وهو استقبال القبلة في هذه البيوت واقامة الصلاة فيها فهو خطاب للقوم كلهم من بني اسرائيل واقامة الصلاة فرض على الجميع يقتضي السياق النص عليه فكل واحد مكلف بأن يجعل بيته قبلة ومكلف باقامة الصلاة والمحافظة عليها . ولما كانوا غير مستقرين في هذه البيوت حيث أمروا باتخاذهم من خيام أو اختصاص تهيئة للارتحال كانت حالتهم مظنة الشغل عن

اقامة الصلاة فلذلك أمروا بالمحافظة على اقامتها فى مدة رحلتهم .
وأفرد الضمير فى قوله : « وبشر المؤمنين » .

ثالثا : لأن موسى هو الأصل فى الرسالة وأخوه ردءا ووزيرا ، ولما كان الأصل فى الرسالة فهو الأصل فى البشارة . أو أنهما فى حكم رسول واحد فان موسى وأخاه لما أرسلا برسالة واحدة كانا رسولا واحدا كقوله تعالى : « انى رسول رب العالمين »(٤٢) أو خص موسى عليه السلام بالبشارة تعظيما لها وللمبشر لأن الغرض الأصلى من جميع العبادات حصول هذه البشارة .

وقيل : البشارة لبنى اسرائيل بأن الله سيظهرهم على عدوهم لأن ما أمروا به من اتخاذ البيوت أمر بحالة مشعرة بترقب أخطار وتخوف فانهم قالوا « ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين » فأمر موسى أن يبشرهم بحسن العاقبة(٤٣) .

ويتنوع الخطاب مرة ثانية فى الآية التى بعدها مباشرة فى قوله تعالى « وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا .. الآية » « قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » .

فقد جاء الافراد أولا فى دعاء موسى عليه السلام ، على فرعون وملئه وجاءت اجابة الدعاء من الله تعالى بالتثنية « قال قد أجيبت دعوتكما .. » فأضيفت الدعوة الى ضمير الخطاب المثنى فلم تأت الاجابة مطابقة لنسق السؤال أو الدعاء فى الظاهر ، فلم عدل ، اذن

---

(٤٢) التحرير والتنوير ٢٦٧/١١ .
(٤٣) بدائع الفوائد ٢٢/٤ .

النظم القرآني عن ظاهر السياق في الاجابة من خطاب المفرد الى خطاب المثنى ؟

ذكر العلماء والمفسرون وجوها متعددة في بيان سبب هذا العدول منها : أن الخطاب المعدول اليه لموسى وهارون عليهما السلام وظاهره أن هارون عليه السلام دعا بمثل ما دعا به موسى عليه السلام حقيقة لكن اكتفى بنقل دعاء موسى عليه السلام لكونه الرسول بالاستقلال ، وأشرك هارون معه في الاجابة اظهارا لشرفه وبشارة له عليه السلام (٤٤) .

وقد يقال : انه لم يقع من هارون عليه السلام دعاء على الحقيقة لكن أضيفت الدعوة اليه أيضا في الاجابة بناء على أن دعوة موسى عليه السلام في حكم دعوته مراعاة لجانب كونه تابعا له ووزيرا فجعل كأنه قائل ما قال به موسى لأن دعوتهما واحدة ، ويؤيد هذا قوله تعالى « والله ورسوله أحق أن يرضوه » فقد قيل لما كان الارضاءين واحدا من جهة كون رضا رسول الله من رضا الله لكونه رسوله ومبلغا عنه جل علاه قال تعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » من أجل هذا أفرد الضمير فقيل « يرضوه »(٤٥) فقد جاءت في هذه الآية التثنية بالعطف أولا والافراد ثانيا ، وفي الآية التي نحن بصددها جاء الافراد أولا والتثنية ثانيا على العكس .

وقيل : ان موسى عليه السلام كان يدعو وهارون كان يؤمن ، ومن يقول « آمين » داع أيضا لأن معناه استجب .

---

(٤٤) روح المعاني للالوسي ١١/١٧٤ .

(٤٥) انظر : تفسير القرطبي ٥/٣٠٣٣ بتصرف .

وقيل : ان التثنية هنا قائمة مقام المفرد لأن العرب قد تخاطب الواحد بخطاب الاثنين قال الشاعر :

فقلت لصاحبى لا تعجلانا ... بنزع أصوله فاجترشيحا

وقد ذكر القرطبى وجها عن النحاس قال : سمعت على بن سليمان يقول : الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى عليه السلام « ربنا »

ولم يقل « رب » • وهذا لم ينهض دليلا على أن الدعاء لهما معا لأنه ليس من اللازم أن يكون نصا فى دعاء الاثنين فقد يدعو به الواحد بل هو الأفضل والأرجى لقبول الدعاء على نحو ما مر فى قوله تعالى « اهدنا الصراط المستقيم » •

وفى نظم الجواب على هذا النسق المحكم أسرار بلاغية نرى من تمام الفائدة أن نذكرها •

فقوله : « قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » جواب من الله لكلام موسى عليه السلام جرى على طريقة حكاية المحاورات التى لا تعطف جملها فى غالب آيات التنزيل وافتتاح الجملة بـ « قد » والفعل ماض يفيد تحقق الحصول فى المستقبل ولا يلزم من الاخبار بالماضى حصول الاجابة فى الزمن الماضى وانما حصولها فى المستقبل وعلى هذا يكون الماضى قد وضع موضع المستقبل لتحقق حصوله لأن أخبار الله كائنة لا محالة فهى بمنزلة الحاصلة ، ومعنى اجابة الدعوة اعطاء ما سأله موسى ربه أن يسلب عن فرعون وملئه النعم ، ويوالى عليهم المصائب حتى يسأموا مقاومة دعوة موسى قال تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » وقال : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات » •

وبعد أن أخبر باجابة دعوتهما أمرهما بالاستقامة شكرا على هذه النعمة وهى اجابة الله دعاءهما .

والأمر هنا فى قوله « استقيما » قد خرج عن معناه الحقيقى وهو طلب حصول الفعل « الاستقامة » لأنها حاصلة ، وناهيك باستقامة النبوة ، وتحصيل الحاصل محال ، وعلى هذا يكون المراد من الأمر الثبات على الاستقامة والمداومة عليها والازدياد منها ، ثم عقب الأمر بالاستقامة النهى عن اتباع طريق الذين لا يعلمون ، وان كان ذلك داخلا ضمن الأمر بالاستقامة لمزيد التنبيه على توخى الطريق المستقيم وهو طريق الحق ، واهتماما بالتحذير من الفساد أو قد يكون النهى عن اتباع سبيل الجاهلين الذين لا يفقهون حكمة اجابة الدعاء فيظنون أنه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا فى الحال فربما أجاب دعاء انسان فى مطلوبه الا أنه انما يوصله اليه فى وقته المقدر ، والاستعجال لا يصدر الا من الجهال ، وهذا النهى لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى عليه السلام .

كما أن قوله : « لئن أشركت ليحبطن عملك » لا يدل على صدور الشرك منه عليه السلام . فيكون المراد من النهى التهييج والالهاب وقد يكون الكلام خبرا ولا نافية والواو للحال أو للعطف والخبر بمعنى النهى كقوله تعالى : « لا تعبدون الا الله ، وذلك لأن نون « ولا تتبعان » تسقط بالجزم على أن « لا » ناهية واذلك قيل انها نون المثنى ومن قرأ بالتشديد فعلى ادغام نون المثنى بنون التوكيد الخفيفة .

ومن العدول عن خطاب المفرد الى خطاب المثنى ما جاء فى قوله تعالى : « قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين » وجهوا الخطاب أولا بالافراد الى موسى عليه السلام منكرين عليه ما جاءهم به من الحق

الذى يصرفهم عن دين آبائهم ، وكان الخطاب له أولا خاصة لأنه هو المباشر للدعوة والمشافهة لهم بما سبق من دعوته لهم الى الايمان الذى وصفوه بالسحر وهو عليه السلام الذى أظهر لهم المعجزة التى أبطلت السحر ، ووجهوا الخطاب بعد ذلك بالتثنية مراعاة لحالهم فى سوء ظنهم بموسى وهارون فى الغاية التى ينطلبانها وهى تحصيل النفع لأنفسهما بالاستحواذ بهما الملك والظفر بالعظمة والكبرياء على النــــاس(٤٦) •

---

(٤٦) انظر : روح المعانى للآلوسى •

الفصل الثانى

تنوع الخطـاب بين الافراد والتثنية والجمع

الانتقال من التثنية الى الجمع ثم الى الافراد :

فى قوله تعالى : « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين» تنوع الخطاب والأمر بالتثنية .

أولا : فى قوله « تبوءا » ثم عدل عنه الى الجمع . ثانيا : فى قوله « واجعلوا ... وأقيموا » وعدل عنه الى الافراد . ثالثا : فى قوله : « وبشر المؤمنين » كيف التأم النظم بهذا الخطاب المتنوع ؟

يجيب ابن القيم على هذا بقوله : « هو من أحسن النظم وأبدعه فانه ثنى أولا اذ كان موسى وهارون هما الرسولان المطاعان ، ويجب على بنى اسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء ، واذا تبوءا البيوت لقومهما فهم تبع لهما ، وهذا التفسير يشير الى المجاز العقلى الذى علاقته السببية ولم ينقصه سوى ذكر المصطلح البلاغى ، لأن ابن القيم ينكر المجاز ويسميه « الطاغوت » .

وقد صرح بالمجاز فى هذه الآية الشيخ الطاهر بن عاشور حيث قال : وفاعل هذا الفعل فى الأصل هو الساكن فى المباءة ، وانما أسند هنا الى ضمير موسى وهارون — عليهما السلام — على طريقة المجاز العقلى ، اذ كانا سبب تبوؤ قومهما للبيوت .

والقرينة قوله : « لقومكما » اذ جعل التبوؤ لأجل القوم على منوال قوله تعالى : « وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا » •

ثم عدل عن التثنية الى الجمع فى قوله تعالى : « واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة » بتوجيه الخطاب الى قوم موسى وهارون ، وهما فى ضمن هذا الخطاب •

ولعل السر فى خطاب الجمع هنا هو تعلقه بحكم تشريعى وهو استقبال القبلة فى هذه البيوت واقامة الصلاة فيها اذ كان القوم أول الأمر مأمورين بالصلاة فى بيوتهم خفية خوفا من فرعون وملئه لئلا يؤذوهم أو يفتنوهم فى دينهم على مثل ما كان عليه حال المؤمنين وسيد المرسلين أول الدعوة •

فهو خطاب للقوم كلهم من بنى اسرائيل واقامة الصلاة فرض على الجميع يقتضى السياق النص عليه فكل واحد مكلف بأن يجعل بيتـه قبلة ومكلف أيضا باقامة الصلاة فيها والمحافظة عليها لأنهم كانوا غـير مستقرين فى هذه البيوت حيث أمروا باتخاذها من خيـام أو أخصاص تهيئة للارتحال فكانت حالتهم هذه مظنة الشـغل عن اقامة الصـلاة فلذلك أمروا بالمحافظة على اقامتها فى مدة رحلتهم •

وأفرد الضمير فى قوله : « وبشر المـؤمنين » لأن موسى هو الأصل فى الرسالة وأخوه ردءا ووزيرا ، وكما كان الأصل فى الرسالة فهو الأصل فى البشارة لأنها من خصوصيات صاحب الشريعة ممـا يجعلها ذات أثر كبير فى نفوس القوم ، ويلحظ فى وضع ضمير المؤمنين موضع ضمير القوم معنى مدحهم بالايمان وللاشعار كذلك بأن هذا الوصف هو المدار فى التبشـير •

وقيل : لأنهما فى حكم رسول واحد كقوله تعالى : « انى رسول

رب العالمين » فان موسى وأخاه لما أرسلا برسالة واحدة كانا رسولا واحدا • او خص موسى عليه السلام بالبشارة تعظيماً لها وللمبشر لأن الغرض الأصلى من جميع العبادات حصول هذه البشـــارة ، وقيل: البشارة لبنى اسرائيل بأن الله سيظهرهم على عدوهم لأن ما امروا به من اتخاذ البيوت أمر بحالة مشعرة بترقب اخطار وتخوف فانهم قالوا « ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين فأمر موسى أن يبشرهم بحسن العاقبة • وهذا الوجه أنســب للمقـــام •

العدول عن خطاب المفرد الى خطاب المثنى :

ويتنوع الخطاب مرة ثانيه فى الآية التى بعد السابقة مباشرة فى قوله تعالى : « وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا •• الآية » « قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » فقد جاء الافراد أولا فى دعاء موسى — عليه السلام — على فرعون وملئه ثم عدل عنه الى التثنية فى اجابة الدعاء من الله تعالى « قال قد أجيبت دعوتكما » فأضيفت الدعوة الى ضمير الخطاب المثنى فلم تأت الاجابة مطابقة لنسق السؤال أو الدعاء فى الظاهر ، فلم عدل النظم القرآنى عن ظاهر السياق فى الاجابة من خطاب المفرد الى خطاب المثنى ؟ ذكر العلماء والمفسرون وجوها متعددة فى بيان سبب هذا العدول منها : أن الخطاب المعدول اليه لموسى وهارون عليهما السلام وظاهره أن هارون عليه السلام دعا بمثل ما دعا به موسى عليه السلام حقيقة لكن اكتفى بنقل دعاء موسى عليه الســـلام لكونه الرسول بالاستقلال وأشرك هارون معه فى الاجـــابة اظهـــارا لشرفه وبشارة له عليه السلام •

وقد يقال :انه لم يقع من هارون عليه السلام • دعاء على الحقيقة

لكن أضيفت الدعوة اليه فى الاجابة بناء على أن دعوة موسى عليه السلام فى حكم دعوتة مراعاة لجانب كونه تابعا له ووزيرا فجعل كانه قائل ما قال به موسى لأن دعوتهما واحدة ، ويؤيد هذا قوله تعالى : « والله ورسوله أحق أن يرضوه » فقد قيل : لما كان الارضاءان واحدا من جهة كون رضا رسول الله من رضا الله تعالى لكونه رسوله ومبلغا عنه جل علاه قال تعالى : « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » من أجل هذا أفرد الضمير فقيل « يرضوه » فقد جاءت فى هذه الآية التثنية بالعطف أولا والإفراد ثانيا ، وفى الآية التى نحن بصددها جاء الافراد أولا والتثنية ثانيا على العكس .

وقيل : ان موسى عليه السلام كان يدعو وهارون كان يؤمن ، ومن يقول : « آمين » داع أيضا لأن معناه : استجب .

وقيل : ان التثنية هنا قائمة مقام المفرد ، لأن العرب قد تخاطب الواحد بخطاب الاثنين . قال الشاعر :

فقلت لصاحبى لا تعجلانا بنزع أصوله فاجتز شيحا

وقد ذكر القرطبى وجها عن النحاس قال : سمعت على بن سليمان يقول : الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى — عليه السلام — «ربنا» ولم يقل : «رب» (١) وهذا لم ينهض دليلا على أن الدعاء لهما معا ، لأنه ليس من اللازم أن يكون قوله : « ربنا » نصا فى دعاء الاثنين فقد يدعو به الواحد بل هو الأفضل والأرجى لقبول الدعاء على نحو ما مر فى قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم » .

وفى نظم اجابة الله دعاء موسى وهارون على هذا النسق المحكم أسرار بلاغية نرى من تمام الفائدة أن نذكرها .

---

(١) تفسير القرطبى ٣٠٣٣/٥ — بتصرف .

١ — فصل بين دعاء موسى عليه السلام وبين اجابة دعائه من الله — عز وجل — لشبه كمال الاتصال لأن الكلام جرى على طريقة حكاية المحاورات التى لا تعطف جملها فى غالب آيات التنزيل .

٢ — افتتاح الجملة بقد على الفعل الماضى يفيد تحقق الحصول فى المستقبل ولا يلزم من الاخبار بالماضى حصول الاجابة فى الزمن الماضى ، وانما حصولها فى المستقبل على منوال قوله تعالى : « أتى أمر الله » فيكون الماضى قد وضع موضع المستقبل لتحقق حصوله ، لأن أخبار الله كائنة لا محالة فهى بمنزلة الحاصلة .

ومعنى اجابة الدعوة اعطاء ما سأله موسى ربه أن يسلب عن فرعون وملئه النعم ويوالى عليهم المصائب حتى يسأموا مقاومة دعوة موسى — عليه السلام — قال تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » وقال : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات » .

٣ — وبعد أن أخبر باجابة دعوتهما أمرهما بالاستقامة شكرا على هذه النعمة وهى اجابة الله دعاءهما . والأمر هنا فى قوله : « استقيما » قد خرج عن معناه الحقيقى ، وهو طلب حصول الفعل « الاستقامة » لأنها حاصلة وناهيك باستقامة النبوة ، وتحصيل الحاصل محال وعلى هذا يكون المراد من الأمر : الثبات على الاستقامة والمداومة عليها والازدياد منها . ثم عقب الأمر باستقامة النهى عن اتباع طريق الذين لا يعلمون ، وان كان ذلك داخلا ضمن الأمر بالاستقامة لمزيد التثنية على توخى الطريق المستقيم وهو طريق الحق وللاهتمام بالتحذير من الفساد . أو قد يكون النهى عن اتباع سبيل الجاهلين الذين لا يفقهون حكمة اجابة الدعاء فيظنون أنه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا فى الحال ، فربما أجاب دعاء انسان فى مطلوبه الا أنه انما

يوصله اليه فى وقته المقدر ، والاستعجال لا يصدر الا من الجهال ، وهذا النهى بهذا المعنى لا يدل على أنه قد صدر من موسى عليه السلام .

كما أن قوله : « لئن أشركت ليحبطن عملك » لا يدل على صدور الشرك منه عليه السلام فيكون المراد من النهى التهيج والالهاب .

وقد يكون الكلام خبرا و « لا » نافية ، والواو للحال أو للعطف ، والخبر بمعنى النهى كقوله تعالى « لا تعبدون الا الله » ، وذلك لأن نون « ولا تتبعان » تسقط بالجزم ، على أن « لا » ناهية ولذلك قيل انها نون المثنى . ومن قرأ بالتشديد فعلى ادغام نون المثنى بنون التوكيد الخفيفة .

ومن العدول عن خطاب المفرد الى خطاب المثنى ما جاء فى قوله تعالى « قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين » وجهوا الخطاب أولا بالافراد الى موسى عليه السلام منكرين عليه ما جاءهم به من الحق الذى يصرفهم عن دين آبائهم .

وكان الخطاب له أولا خاصة ، لأنه هو المباشر للدعوة والمشافهة لهم بما سبق من دعوته لهم الى الايمان الذى وصفوه بالسحر ، وهو عليه السلام الذى أظهر لهم المعجزة التى أبطلت السحر .

ووجهوا الخطاب بعد ذلك بالتثنية مراعاة لحالهم فى سوء ظنهم بموسى وهارون فى الغاية التى يتطلبانها وهى تحصيل النفع لأنفسهما بالاستحواذ بالملك والظفر بالعظمة والكبرياء على الناس(٢) .

---

(٢) انظر روح المعانى للآلوسى .

العدول عن المثنى الى المفرد :

في قوله تعالى : ((فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى)) في هذا النظم الجليل تحذير منه سبحانه وتعالى لآدم وزوجه من عداوة ابليس ونهى لهما عن مطاوعتهما فيما يوسوس به لهما حيث يفضي ذلك الى خروجهما من الجنة ، وحينئذ فلابد من النصب والتعب سعيا في طلب الرزق بعدما كان الحال في الجنة عيشا رغيدا هانئا بلا كلفة ومشقة . ونهى عن فعل الاخراج به وبزوجه فقال : ((فلا يخرجنكما)) وأسند فعل الشقاء الى آدم عليه السلام وعلى هذا يكون الخطاب معدولا به من المثنى الى المفرد ما السر في ذلك ؟

أجاب جار الله الزمخشري على هذا بقوله : وانما أسند الى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد اشراكهما في الخروج لانه هو المقصود أولا بالكد والتعب والشقاء لتحصيل العيش ، وان قصدت زوجه أيضا بالشقاء لكن ذلك على وجه التبع فجعل الخطاب للمقصود أصلا دون المقصود تبعا وضمنا ، مع ما في هذا النظم من مراعاة الفواصل والايجاز . أو يكون العدول لأن الشقاء وهو التعب في تحصيل أمر المعاش وهو من وظائف الرجال ، لأن الله تعالى جعل المشقة في معيشة الدنيا في حيز الرجال أصلا .

فهذان وجهان ذكرهما الزمخشري ، وقد يظن مع بادئ النظر أن الوجهين كالمتقاربين . والحق أنهما مختلفان . فمبنى الأول على ان العدول الى المفرد لا يجاوز في الحقيقة هذا اللفظ فقط فزوجه — عليه السلام — من حيث المعنى داخلة معه اذ المراد فتشقيان لكنهما لما كانا كالشيء الواحد يجري على أحدهما ما يجري على صاحبه عبر عنهما بصيغة المفرد ويستأنس له بقوله تعالى ((يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها)) .

وعلى هذا يكون ذلك من باب التعبير عن المثنى بالمفرد ، وقد غلب فيه آدم — عليه السلام — على زوجه من تغليب المذكر على المؤنث كالمنة السابقة ومن فوائد التغليب ومقاصده : الايجاز لأن زوجه داخلة ضمن هذا الخطاب دون أن يسند الشقاء اليها نصا .

ولذلك يقول الزمخشرى : « فاختصر الكلام باسناده اليه دونها » . وأما على التوجيه الآخر فالعدول عن خطاب المثنى الى خطاب المفرد وليس من خطاب المثنى بالمفرد ، لأن آدم هو المقصود فى الوجه الثانى فقط ولم يدخل فى ضمنه زوجه كما فى الوجه الأول ، فهما وجهان مختلفان(٣) . وقد روعى فيهما جانب المعنى على نحو ما بينا وجانب اللفظ بمراعاة الفواصل .

ومن العدول عن المثنى الى المفرد قوله تعالى : « قال فمن ربكما يا موسى » وهو من سؤال الطاغية فرعون لموسى عليه السلام ، ونلحظ أنه أضاف الرب الى ضمير المثنى المراد به موسى وهارون أولا ، وخص النداء بموسى عليه السلام وحده على وجه التنصيص ثانيا ، فما السر وراء هذا العدول ؟

يقول الزمخشرى : « خاطب الاثنين ووجه النداء الى أحدهما وهو موسى لأنه الأصل فى النبوة ، وهارون وزيره وتابعه ، ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته على استدعاء كلام موسى ، دون كلام أخيه لما عرف من فصاحة هارون والرتة فى لسان موسى — عليه السلام — ويدل عليه قوله : «أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين»(٤) .

---

(٣) انظر : وجوه الخطاب فى القرآن الكريم ومواقعه البلاغية للدكتور محمد أبو زيد ص ٨٦ .

(٤) الكشاف ٢/٥٣٩ .

العدول عن خطاب المثنى الى خطاب الجمع :

فى قوله تعالى : « يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم » فقد عدل عن المثنى الى الجمع فى قوله : « ألم يأتكم » فلم يقل «يأتكما» مراعاة لجنسى الجن والانس ، وانما جمع مراعاة للأفراد المندرجة تحت الجنسين لافادة العموم أى عموم افراد الجنسين من الجن والانس وذلك لتقريرهم جميعا باتيان الرسل اليهم وتبليغهم الدعوة ، وفى ذلك مزيد من التوبيخ والتقريع لمن فرط من المعشرين فى جنب الله فلو لم يسلك هذا الطريق وأجرى الخطاب على نسق ما قبله لتوهم انصراف المعنى المفاد بالاستفهام الى جنس المعشرين دون اعتبار افرادهما جميعا .

ومن العدول عن خطاب المثنى الى خطاب الجمع أيضا قوله تعالى : « قال كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون » فقد أتى الخطاب بالتثنية فى قوله : « فاذهبا » مرادا به موسى وهارون عليهما السلام — ثم عدل النظم الكريم عن التثنية الى الجمع فى قوله : « انا معكم مستمعون » لم يقل : « انا معكما » .

وقد ذكر الشهاب الخفاجى سر هذا العدول وهو أن الجمع لكون الخطاب هنا لموسى وهارون ومن تبعهما من بنى اسرائيل فيتضمن الكلام البشارة بالاشارة الى علو أمرهما واتباع القوم لهما لقوله تعالى : « ونجعل لكما سلطانا »(٥) .

---

(٥) حاشية الشهاب الخفاجى ٧/٧ .

العدول عن الجمع الى المفرد :

قد يعدل عن الجمع الى المفرد وان لم يكن المفرد مرادا به معينا كما فى قوله تعالى : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم أرجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » •

فقد جرى الخطاب أولا فى قوله سبحانه « ليبلوكم أيكم » على طريق الجمع ، ثم عدل الى المفرد بعد ذلك فى قوله تعالى : «ما ترى •• فارجع •• ثم ارجع •• » ولعل السر فى هذا العدول هو أنه لما كان الخطاب الأول وهو أمر الابتلاء مما يعم جميع المكلفين فردا فردا بحيث لا يتخلف عنه أحد كما أن ذلك واقع تعليلا لآية كونية التى هى من دلائل ملكه تعالى واقتداره وهى آية عامة لا يتخلف عنها أحد فهى قائمة مع كل نفس مخلوقة ، ولا سبيل معها الى نكران أو مكابرة لذلك كله سيق الخطاب الكريم مساق الجمع لينتظم جميع المخاطبين •

ولكن لما كان الأمر مع المخاطبات الأخر يختلف اختلفت صورة الخطاب معها حيث كانت تتصل بآية فى الآفاق بعد ما كانت الأولى فى الأنفس(٦) ، وآيات الآفاق تحتاج الى مزيد من النظر والاعتبار للدلالة على وحدانية الله وربوبيته وقدرته وسعة سلطانه ومن ثم عدل النظم الكريم عن خطاب الجمع الى خطاب المفرد الذى يراد به غير معين ، ولعل السر فى ذلك هو ارادة استقلال كل مخاطب بالنظر فى

---

(٦) وجوه الخطاب للدكتور محمد أبو زيد ص ٩١ •

آيات الآفاق ، لأنه اذا وجه الخطاب اليه بالجمع فقد لا ينظر فيها اعتمادا على نظر غيره ..

وفي قوله تعالى : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى .. » ذكر النظم الرؤية أولا بخطاب الجمع ثم عدل عنه الى خطاب الافراد في قوله : « وترى » .. والسر — والله أعلم — في هذا الاختلاف وهو أن متعلق الرؤية مختلف في الموضعين اذ ان المرئي في الأول هو الزلزلة التي يشاهدها جميع الناس ، فكان خطاب الجمع انسب لذلك وفي الثاني المرئي هو ما عليه حال الناس من السكر ، وهذا يقتضي أن يكون كل واحد منهم رائيا لسائرهم (٧) .

وعلى هذا فلابد من افراد المخاطب على وجه يعم كل واحد منهم اذ الخطاب هنا لغير معين ، فهو وان كان مفردا من حيث اللفظ الا أنه يشمل الجميع ، وانما أفرد باعتبار أن كل واحد منهم رائيا لباقيهم ، أى أنهم يرون بعضهم بعضا على هذه الحال ، فلو قيل : وترون الناس سكارى لكان المفهوم منه أن جماعة منهم غير سكرى ترى الناس على حال من السكر وهذا غير مراد اذ ان الجميع في هذا اليوم سكارى ، وانما يرى بعضهم بعضا على هذه الحالة . وقيل : خطاب الافراد لرسول الله ﷺ فيكون المخاطب مفردا على حقيقته ومتعينا ، لأنه ﷺ لم ينله ما ألم بهم من الهول والفزع والسكر ، وفيه مزيد تكريم لرسول الله ﷺ ، ولا تعارض بين التفسيرين فيصح الأخذ بهما باعتبارين مختلفين ومن العدول عن الجمع الى الافراد قوله تعالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » .

---

(٧) انظر : الكشاف ٣/٥

بخطاب الابتلاء وارد على طريق الجمع ، وخطاب البشارة وارد على طريق المفرد • وذلك لأن الابتلاء يعم الجميع وأما البشارة بثواب الصبر وبيان درجته فهو من خصوصيات الرسالة حتى من تتأتى منه البشارة غير الرسول فانه يبشر الصابرين بما ثبت عن رسول الله ﷺ مما جاء فى السنة المطهـرة •

ولذلك فانه مع ما قيل من أن البشـارة يمكن صرفها الى كل من يتأتى منه التبشير الا أن الأبلغ والأنسب للسياق أن الخطاب هنـا فى البشارة على ظاهره الى رسول الله ﷺ حتى من تتأتى منه البشارة من الصحابة أو التابعين أو العلماء المجتهدين فانهم لا يخرجون فى بشارتهم عما جاء به رسول الله ﷺ •

لكن اذا قال ﷺ « بشر » فان المراد منه كل من تتأتى منه البشارة على وجه العموم كما قال ﷺ « بشر المشائين فى الظلم بالنور التـام يوم القيامة » •

العدول عن خطاب الجمع الى خطاب المثنى :

قال تعالى : « سنفرغ لكم أيها الثقلان • فبأى آلاء ربكما تكذبان يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفـذوا من أقطـار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان • فبأى آلاء ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » •

فقد عدل أولا عن خطاب الجمع فى قوله تعالى « سنفرغ لكم » الى المثنى ثم عدل عنه الى الجمع فى قوله تعالى : « ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان » ثم عاد الخطاب مرة أخرى الى خطاب المثنى •

وفي ايثار طريق الجمع أولا لتعلق الخطاب بجزاء المكلفين ، وهذا يقتضي شموله لجميع المكلفين فردا فردا ثم عدل الخطاب إلى المثنى على ما عليه نظم السورة الكريمة في قوله تعالى : « أيها الثقلان » حيث خوطبوا باسم جنسهما من الجن والانس • في قوله تعالى « يا معشر الجن والانس ••• » لزيادة التقرير ، ثم عدل الى الجمع في قوله تعالى : « ان استطعتم » لرعاية كثرة الأفراد المندرجة تحت جنسي الجن والانس •

وهذه المخاطبات المتنوعة انما وردت للدلالة على جزاء المكلفين من الجن والانس في يوم القيامة حيث أن العذاب لاحق بالكافرين والعاصيين منهم لا محالة ولا مهرب ولا مفر من وقوعه بهم ولات حين مناص لأن الملائكة محيطة بأقطار السموات والأرض •

ولذلك فان الأمر في قوله تعالى : « فانفذوا » للتعجيز حيث لا نفاد لهم ولا مخرج من ملك الله تعالى •

ويذكر الفخر الرازي : « أنه لما كان القصد في قوله تعالى : « ان استطعتم » بيان عجزهم وعظمة ملك الله تعالى قال : « ان استطعتم أن تنفذوا باجتماعكم وقوتكم فانفذوا • ولا تستطيعون لعجزكم فقد بان عند اجتماعكم واعتضادكم بعضكم لبعض فهو عند افتراقكم أظهر ، فهو خطاب عام مع كل أحد عند الانضمام الى جميع من عداه من الأعوان والاخوان ثم يوضح ما وراء العدول الى المثنى بعد ذلك في قوله تعالى : « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » فيقول : « هو لبيان الارسال على النوعين لا على كل واحد منهما ، لأن جميع الانس والجن لا يرسل عليهم العذاب والنار فهو يرسل على النوعين أي على العاصين منهما ويتخلص منه بعض منهما بفضل الله ، ولا يخرج أحد من الأقطار أصلا »(٨) •

---

(٨) التفسير الكبير :

العدول عن خطاب المفرد الى الجمع :

فى قوله تعالى :- « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم المهتدين » هذا كله على طريق خطاب المفرد ، ثم عدل النظم الكريم الى خطاب الجمع فى قوله تعالى : «وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » ثم يعود السياق مرة أخرى الى خطاب الافراد فى قوله تعالى : « واصبر وما صبرك الا بالله ... » .

والمخاطب فى هذه الآيات هو سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام لما ذكر فى أسباب النزول من أنه ﷺ حين رأى عمه يمثل به يوم أحد حلف أن ينتقم منهم بأن يمثل بسبعين من أهل الشرك فنزلت الآية .

والآية مسوقة لبيان أن العقاب لابد أن يكون مماثلا للعقاب الذى نزل بكم دون زيادة أو افراط فى العقاب ، والمقام يقتضى التنبيه على هذا لأن الذى لحقته الاساءة قد تحدثه نفسه وتسوقه الى الانتقام الشديد ممن أساء اليه أو اعتدى عليه .

ولعل السر فى العدول عن المفرد الى الجمع هو كراهة اسناد فعل المعاقبة اليه ﷺ وحده لعظم مقامه ومنزلته عند الله سبحانه وتعالى ، فان الانسان اذا أحب انسانا ذا قدر ومنزلة رفيعة ثم حدث منه ما يستحق اللوم والمعاتبة ، فانه لا يوجه اليه العتاب مباشرة بل يخففه منه باسناده الى ضمير الجمع .

وقد يسنده الى ضمير الغائب المفرد كما حدث فى خطاب المولى عز وجل لرسوله ﷺ حين عبس فى وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه حينما جاءه وقال له يا رسول الله علمنى مما علمك الله وكرر ذلك فكره رسول الله قطعه لكلامه لتشاغله بأكابر القوم من قريش ودعوتهم الى

الاسلام فقال تعالى : « عبس وتولى » دون عبست وتوليت ، ليعلمنا المولى عز وجل غاية اللطف والأدب فى مخاطبة ذوى القدر والمنزلة من الناس .

ومع أن الخطاب لرسول الله ﷺ فى قوله تعالى : « وان عاقبتم ... » فانه لا يمنع من دخول الأمة فى هذا الخطاب فان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ثم عاد الخطاب مرة أخرى الى الأفراد فى قوله تعالى : « واصبر وما صبرك الا بالله ... الآية » والمراد من الأمر بالصبر الحث عليه والثبات والدوام والازدياد منه ..

ومن تحويل الخطاب من المفرد الى الجمع ما نجده فى قوله تعالى: « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله » (هود) .

سلك النظم الكريم طريق خطاب المفرد فى قوله : « قل » ثم عدل عنه الى خطاب الجمع فى قوله تعالى « فان لم يستجيبوا لكم » .

ولو جاء على الظاهر لقال : فان لم يستجيبوا لك ، وفى سر العدول عن مقتضى الظاهر قيل : ان تحويل المخاطبة من الافراد الى الجمع تعظيما وتفخيما ، وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة تعظيما له ، فيقال : أنتم يا سيادة الرئيس قلتم كذا وكذا ، وفعلتم كذا وكذا ، وعلى منواله يا أيها النبى اذا طلقتم النساء ، وكما فى قول الشاعر :

فان شئت حرمت النساء سواكم
وان شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

الشاهد فى قوله « سواكم » اذ المراد سواك ، والكلام عبر بضمير الجمع تعظيما للمخاطب . وهناك وجوه أخر فى تأويل هذه الآية :

منها : أن الخطاب هنا على ظاهره لأنه لرسول الله وللمؤمنين أى فان لم يستجيبوا لك وللمؤمنين ، لأن الرسول ﷺ والمؤمنين كانوا يتحدونهم ، وقال فى موضع آخر فى القصص : « فان لم يستجيبوا لك فاعلم ... » .

ومنها : أن الخطاب فى قوله . «فان لم يستجيبوا لكم» للمشركين والضمير فى « لم يستجيبوا » لآلهتهم أو لأعوانهم ونصرائهم ، والمعنى فأتوا أيها المشركون بعشر سور مثله .. الخ فان لم يستجب لكم من تدعونه الى المظاهرة على المعارضة لعجزهم « فاعلموا أنما أنزل بعلم الله » .

وقد رجح هذا الوجه واستحسنه قطب الدين الرازى فقال : « وهذا الوجه حسن مطرد ، أى الكلام بحسبه ملتئم موافق لما قبله ، لأن ضمير الجمع فى الآية المتقدمة للكفار ، والضمير فى هذه الآية ضمير الجمع فليكن للكفار أيضا ، ولأن أقرب المذكورين الكفار ، فرجوع الضمير اليهم أولى ، ولأن الحمل على المؤمنين يحتاج الى تأويل العلم أى تأويل العلم فى قوله : « فاعلموا » بالثبات على العلم أو الزيادة فيه ، وتأويل الاسلام فى قوله تعالى : « فهل أنتم مسلمون » بالاخلاص فيه(٩) بخلاف هذا الوجه فلا تأويل فيه ، ومالا يحتاج الى تأويل أولى مما فيه تأويل .

ومن العدول عن خطاب المفرد الى الجماعة ومن الخطاب الى الغيبة ، ومن المضمر الى المظهر ما نجده فى قوله تعالى : « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا « هذا إفك

---

(٩) قطب الدين الرازى ص ٦٢١ ، والكشاف ٢/٢٦٢ ، ومفاتيح الغيب للرازى ٨/٤٨٩ .

مبين » فالمخاطبون كانوا بحضرة الرسول — ﷺ — وعلى هذا يكون أصل الكلام « لولا اذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم » ، ولكن النظم القرآني عدل عنه لما في العدول من أسرار بلاغية يقتضيها المقام فنقول :

أولا : السر في العدول عن خطاب المفرد الى خطاب الجماعة هو الاشعار بتعظيم شأن أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — ورفعة مكانها ، وفيه أن النبي ﷺ — أب للمؤمنين وأن ازواجه أمهات لهم وتعظيمه يرجع الى تعظيمهم ، والقالة كالقالة في أنفسهم ، وفي التعبير بلفظ الظن في قوله « ظن » دقيقة ينبغي الوقوف عندها ، وهي أنه يجب على المؤمن اذا سمع في آخيه المؤمن ما يشينه ينبغي أن يبادر الى بناء الأمر على الظن الراجح بأن الأصل براءة ساحة المؤمن عن كل عيب هذا ما يختص بالباطن ، وأما ما يختص بالظاهر فينبغي أن يصرح بالقول الدال على الشهادة له بالخير ويقول بملء فيه « هذا افك مبين » .

وفي العدول من الخطاب الى الغيبة توبيخ للمخاطبين ومعاتبة شديدة وابعاد من مقام الزلفى أي كيف سمعوا ما لا ينبغي الاصغاء اليه ، فضلا عن ان يتفوهوا به وفي العدول من المضمر الى المظهر دلالة على أن صفة الايمان جامعة لهم .

فينبغي لمن دخل في هذه الصفة أن لا يسمع فيمن شاركه فيها قول عائب ولا طعن طاعن لأن عيب أخيه عيبه ، وفي هذا اشارة الى أن المؤمنين يجب أن يكونوا يدا واحدة متعاونين في اصلاح مجتمعهم فلا تتسرب اليه الفتن من أنفسهم ويجب أن يتحلوا بالصفات الحميدة التي تبرهن على صدق ايمانهم بأن يحب كل أخ لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه ، وقد يكون هذا المعنى مدمجا في الآية الكريمة .

ومن العدول عن خطاب المفرد الى خطاب الجمع قوله تعالى : « حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون » قال أولا : رب بالافراد ثم عدل عنه الى الجمع فى قوله « ارجعون » يقول ذلك عند معاينة الموت اختلف المفسرون فى قوله سبحانه وتعالى « ارجعون » من المراد به ؟

فقال بعضهم : الملائكة الذين يقبضون الأرواح وهم جماعة فلذلك ذكره بلفظ الجمع .

وعلى هذا يكون القائل قد نادى ربه ثم خاطب ملائكة ربه بقول : « ارجعون » . ويجوز على هذا الوجه أن يكون على حذف مضاف أى يا ملائكة ربى فحذف المضاف ثم التفت اليه فى عود الضمير(١٠) وقال آخرون المراد من قوله تعالى : « ارجعون » هو الرب المنادى وخوطب بالجمع على سبيل التعظيم كما يخاطب العظيم بلفظ الجمع فيقول فيقال فعلتم وصنعتم كذا وكذا وقال الشاعر :

فان شئت حرمت النساء سواكم   وان شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

فقال سواكم على سبيل التعظيم جريا على عادة العرب من خطاب السادة والملوك بذلك تعظيما . ومنه أيضا قول الشاعر :

ألا فارحمونى يا اله محمد   فان لم أكن أهلا فأنت له أهل

فقد خاطب الاله الواحد بخطاب الجمع على سبيل التعظيم فى قوله : ألا فارحمونى يا اله محمد .

ويؤخذ من هذا البيت ما يرد على الشيخ جمال الدين ابن مالك حيث قال : انه لم نعلم أحدا أجاز للداعى أن يقول « يارحيمون » قال:

---

(١٠) الدر المصون ٥/٢٠١ .

لئلا يوهم خلاف التوحيد ، وقد أخبر تعالى عن نفسه بهذه الصفة وشبهها للتعظيم في مواضع من كتابه الكريم .

وفي الآية وجه ثالث وهو أن ذلك يدل على تكرير الفعل كأنه قال : ارجعون ارجعون ارجعون على نحو قوله تعالى : « ألقيا في جهنم » فقد غسرت التثنية مع الفعل أنها بمثابة تكرار الفعل مرتين بمعنى ألق ألق ، وقيل منه أيضا قول امرىء القيس : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) أي قف قف(١١) .

وفي قصة آدم عليه السلام نجد أن الأمر بهبوط آدم من الجنة هو وزوجه أو هو وابليس اللعين قد كرر في أكثر من موضع في القرآن الكريم وقد تنوعت صيغة الأمر بالاهباط بين الافراد والتثنية والجمع فما سر هذا التنوع ؟ وما مقام كل نوع ؟ نقول — وبالله التوفيق — ان الأمر الأول بالهبوط مجموعا في سورة البقرة في قوله تعالى : « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين »(١٢) الأمر بالاهباط هنا لآدم وحواء وذرياتهما وابليس وذريته بدلالة قوله تعالى : « بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين » فان العداوة المذكورة في الآية انما هي بين آدم وابليس وذريتهما كما قال تعالى : « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » (فاطر آية ٦) وهو سبحانه قد أكد أمر العداوة بين الشيطان والانسان وكرر ذكرها في القرآن لشدة التحرر من هذا العدو ، ولا يمكن في هذا السياق أن يكون أمر الاهباط هنا لآدم وحواء وذريتهما .

---

(١١) المرجع السابق .

(١٢) سورة البقرة آية ٣٦ .

وفى هذا رد على الزمخشرى حيث اختار هـذا الرأى فقـال : والصحيح انه ـ أى امر الاهباط ـ لآدم وحواء والمراد هما وذرياتهما لأنهما لما كانا أصل الانس ومتشعبهم جعلا كأنهما الانس كلهم .

والعجب انه استدل على رأيه بقوله تعالى : قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو » وقوله تعالى : « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ويستفاد من قوله هذا ان الامر بالاهباط الثانى مكرر للأول للتأكيد ، وقد صرح بذلك فقال : فان قلت : لم كرر قلنا اهبطوا ؟ قلت : للتأكيـد ولمـا نيط به من زيادة قـوله : « فاما يأتينكم منى هـــدى »(١٣) .

والواقع أن الامر الثانى بالاهباط للتأسيس لا للتأكيد لأن الأمر الأول علق به حتما غير ما علق بالآخر فعلق بالاول العداوة والاستقرار فى الأرض والتمتع بما فيها الى حين . ولا يمكن ان يكون فى الارض تعاد بين آدم وزوجه لأنه سبحانه اخبر فى كتابه انه خلقها له ليسكن اليها وجعل بينهما مودة ورحمة فالمودة والرحمة بين الرجل وامـرأته والعداوة بين الشيطان والانسان ، وقد تقدم ذكر آدم وزوجه وابليس فى قوله تعالى : « فأزلهما الشيطان فأخرجهما ممـا كانا فيه فلمـاذا يعود الضمير على بعض المذكور ؟! .

والأمر بالاهباط الثانى لآدم وحواء والمراد هما وذرياتهما لأنهمـا لمـا كانا أصـل الانس ومتشعبهم جعـلا كأنهما الانس بدليل ذكـر الفريقين المتقابلين من المهتدين والضالين فى قوله تعالى « فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فـلا خـوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » فالكفـر

---

(١٣) الكشـاف ١/٢٧٤ .

بالآيات فى مقابلة متابعة الهدى كان معنى متابعة الهدى التصديق بالآيات ويؤيد ذلك أيضا تأكيد الجمع بلفظ جميعا اذ فيه اشارة الى أن الاهباط من الجنة ليس خاصا بآدم وحواء لزلتهما ، وانما هو قضاء محتوم وأمر مبرم قضى به الحق سبحانه وهو لا يدخل الجنة بعد ذلك أحد من آدم وحواء وذرياتهما الا بعد تكليف معين يؤهل من اتبعه للعودة الى الجنة أو دخولها ابتداء حينما يأتى أمر الله(١٤) ٠

فالأمر بالهبوط ثانيا كان بعد التوبة وكان تحقيقا للوعد المتقدم فى قوله تعالى : « انى جاعل فى الأرض خليفة » وفى سورة الأعراف وردت لفظة « اهبط » مسندة الى المفرد أولا ومسندة الى ضمير الجمع ثانيا فالأمر بالاهباط أولا فى قوله تعالى : « قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين »(١٥) ٠

فقد اقترن الخروج بالأمر بالهبوط لما فى الخروج من الذلة والمهانة والتوبيخ وعدم العود اليها مرة أخرى ولذلك اقترنت بما يدل على هذا المعنى كما فى هذه الآية « فاخرج انك من الصاغرين » وقد يقتصر النظم القرآنى على لفظه الاخراج فقط كما فى قوله تعالى : « فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين »(١٦) ٠

وأما الأمر بالاهباط ثانيا فى قوله تعالى : « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو » فاما سبق تحريره فى سورة البقرة ، وفى هذه الآية

---

(١٤) متشابه النظم القرآنى فى قصة آدم عليه السلام ص ٢٠٥ ٠

(١٥) سورة الأعراف آية ١٣ ٠

(١٦) سورة الحجر آية ٣٤ ، ٣٥ ٠

وغيرها أفرد لفظ عـــدو وأوقع خبرا عن جمع لأن المراد به جمع اذ هو في معنى المصدر ، ونحوه قوله تعالى : « فانهم عدو لى »(١٧) وقوله: « هم العدو فاحذرهم »(١٨) .

وفي سورة طه ورد الأمر بالهبوط على صيغة المثنى فى قوله تعالى: « قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو » الضمير فى قوله «اهبطا» انما أن يرجع الى آدم وابليس ، ولم تذكر الزوجة لأنها تبع له ، وكأنهما فريقان بحسب ذرياتهما متعاديان ، ولهذا أتى بضمير الجمع فى الجملة الثانية وهى قوله تعالى : « بعضكم لبعض عدو » وممـــا يدل على أن المراد فريق آدم بحسب ذريته ، وفريق ابليس بحسب ذريته وأعوانه التأكيد بلفظ جميعا اذ هما أبوا الثقلين وأصلا الذرية من الانس والجن فذكر حالهما ومآل أمرهما .

ومما يدل أيضا على أن الضمير فى قوله اهبطا لآدم وابليس أن الله سبحانه لمـــا ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجه فقال : « وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » فان المقصود اخبار الله تعالى الثقلين بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر فذكر أبويهما أبلغ فى حصول هذا المعنى من ذكر أبوى الانسان فقط ، ومن ثم خلصت العناية .

خطاب الافراد المراد منـــه الجمع :

من المعلوم أن رسول الله ﷺ هو المبلغ عن الله عز وجل ما نزل من الوحى بواسطة ملك الوحى جبريل عليه السلام . ونجد الخطاب كثيرا ما يوجه الى الرسول ﷺ ، ولكن المراد منه أمته .

---

(١٧) سورة الشعراء آية ٧٧ .

(١٨) المنـــافقون من الآية ٤ .

كما فى قوله تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » حيث ان الظاهر أن الخطاب لمحمد ﷺ والمراد أمته ــ عليه السلام ــ وذلك : لأمرين :

الأول : أنه رسول من عند الله معصوم لا يصدر عنه ما يوجب أن تصبه سيئة .

الثانى : أنه لم يتقدم الآية ذكر الانسان ولا خطابه ، وانما تقدم ذكر الطائفة فالمراد جنس بنى آدم . هذا على قول .

وقد قالت طائفة آخذه بالظاهر هو محمد ﷺ ويرجح ابن القيم أن تكون صورة الخطاب له ﷺ ، والمراد العموم كقوله تعالى : « يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين » ، اذ ان هذا المعنى هو الأليق بمقام النبوة ، وهو الأبلغ فى السياق لكونه ﷺ ــ هو الموجه لأمته بالوحى ، وهو الأصل والمبلغ للأمة ، ولكونه امام الخلائق ومتبوعهم ، فأفرد بالخطاب وتبعته الأمة فى حكمه ، وهذا التعبير جار مجرى من يقول لمقدم العساكر كالسلطان ونحوه : اخرج غدا ، وانزل بمكان كذا ، واحمل على العدو وقت كذا ، ..

ولاشك أن أفراد الجيش داخلون فى المعنى بطريق أولى ومن نظائر هذه الآية قوله تعالى : « واتبع ما يوحى اليك » وقوله : « وتوكل على الله » ، وقوله : « ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » ولا يتصور الشرك منه ﷺ ومنه قوله تعالى : « فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسئل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » .

فالخطاب لمحمد ﷺ ولكن يتناول غيره من جميع الأمة بطريق الأولى ، هذا مفاد كلام ابن القيم ، وقد أتى بنظائر الآية التى بصدد

تفسيرها على المعنى السابق ويمكن أن يضاف الى ما ذكره ابن القيم سرا بلاغيا آخر فى مثل هذه المخاطبات حيث لا تعارض بينها فالنكات البلاغية لا تتزاحم والقرآن حمال أوجه ، وهو افادة معنى التهييج والالهاب(١٩) .

والتهييج مأخوذ من قولهم : هاجت الحرب اذا ثارت والالهاب مأخوذ من قولهم : ألهب النار اذا أسعرها حتى التهبت وطال لهبها هذا معناهما فى اللغة ، وأما فى اصطلاح علماء البلاغة فقد ذكره صاحب الطراز بقوله : « هما مقولان فى كل كلام دال على الحث على الفعل ممن لا يتصور منه تركه ، وعلى ترك الفعل لمن لا يتصور منه فعله ، ولكن يكون صدور الأمر والنهى ممن هذه حاله على وجه الالهاب والتهييج له فى الفعل أو الكف لا غير .

ثم يعقب العلوى بقوله : « فهذان نوعان من الكلام يرادان فى الكلام الفصيح والخطب البليغة ، ولولا موقعهما فى البلاغة أحسن موقع لما وردا فى كتاب الله تعالى الذى أعجز الثقلين الاتيان بمثله أو بأقصر سورة من سوره »(١٩) .

ويلاحظ من كلام العلوى قصر هذا المعنى على كلا من الأمر والنهى ، وان كان من الممكن أيضا دخول بعض ألوان الخطاب بأسلوب الخبر كما ذكر ابن القيم ، وهذا اللون من الخطاب فيه تنبيه بليغ للمخاطب وتوقيف له على أمر عظيم كما فى قوله تعالى : « فاستقم كما أمرت » .

---

(١٩) الطراز ٣/١٦٥ ، ١٦٦ ، ٣٦٣ .

فالخطاب للرسول ﷺ والمراد منه على جهة التبع أمته اذ الأمة أيضا مأمورون بالاستقامة ، والتهييج والإلهاب للرسول ﷺ ولأمته .

ولذلك عندما نزلت هذه الآية قال ﷺ « شيبتنى هود » والغرض من ذلك هو حثه ﷺ على مداومة الفعل المأمور به والازدياد منه ، وبالنسبة لأمته يكون المراد طلب المداومة على الاستقامة والازدياد منها والتهييج والإلهاب هو الذى يؤدى الى اثارة كوامن الاحساس فى نفوسهم قائلين اذا كان رسول الله ﷺ يؤمر بذلك وهو المعصوم والذى لا يتصور منه خلاف الاستقامة فما بالنا ونحن نحيد عنها أحيانا فيكون هذا دافعا لهم الى الحرص على الاستقامة والازدياد منها .

ومنه قوله تعالى : « يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين » فالخطاب له ﷺ ، والمراد : المؤمنون لأنه ﷺ . كان تقيا — وحاشاه — من طاعة الكافرين والمنافقين ودليل هذا التوجيه وما ورد عليه الخطاب المختتم به هذا النظم حيث كان على صيغة العموم .

ويرى الزركشى أن هذا التوجيه لا يتيسر فى كل حال ، ففى قوله — عز وجل — : « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ، لا يمكن القول بصرف الخطاب الى الأمة ، وانما ظاهر السياق أنه له ﷺ وقد يحمل هذا الأسلوب على التعريض كما فى قوله تعالى : « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين » .

فالخطاب له ﷺ فى الظاهر ، وان كان فى الحقيقة على قصد التعريض بغيره والمعرض بهم هنا « النصارى » الممترون فى الالهية .

الفصل الثالث

جمع القلة وجمع الكثرة

الجموع — كما هو معلوم لنا — نوعان :

١ — جمع قلة ويطلق على الثلاثة الى العشرة ، وأوزانه أربعة هي : (أفعل : أكلب) ، و (أفعال : أحمال) ، و (أفعالة : أحمرة) ، و (فعلة : فتية) .

٢ — جمع كثرة ويطلق على العشرة فما فوقها ، وأوزانه القياسية ثلاثة وعشرون وزنا وما عدا ذلك فمسموع ، وقد يكون لاستعمال أحد الجمعين غرض بلاغي يقصد اليه النظم القرآني أو قد يوضع أحدهما مكان الآخر لنكتة بلاغية يقتضيها المقام فمن وضع الكثرة موضع القلة ما جاء في قوله تعالى : «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء »(١)

يقول الزمخشري فان قلت لم جاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التي هي الأقراء ؟ قلت : يتسعون في ذلك «فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية »(٢) فالقروء جمع كثرة وضع موضع جمع القلة ، لأن مميز الثلاثة الى العشرة حقه أن يكون جمع قلة .

ومفاد كلام الزمخشري أنه جاء على الاتساع ، وهو باب واسع ومستفيض في كلام العرب ، وقد تردد هذا المصطلح كثيرا في مؤلفات

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٨ .

(٢) الكشاف ١/٣٦٦ .

القدماء ، وقد حمل أكثره على المجاز ، وكلام الزمخشري يشير الى هذا المعنى لقوله : « فيستعملون كل واحد منهما مكان الاخر لاشتراكهما في الجمعية » ويعنى هذا ان استعمال جمع الكثرة هنا مكان جمع القلة على المجاز لوجود صفة مشتركة بين المعنى المنقول منه والمعنى المنقول اليه ، وهو اشتراكهما فى الجمعيه ويرى أن السر فى ايثار جمع الكثرة على القلة ، لأنه أى جمع الكثرة أكثر استعمالا فى جمع « قرء » من « اقراء » ، فنزل أقراء لقلة استعماله منزلة المهمل فى هذا السياق •

والقرء فى اللغة : أصله الوقت المعتاد تردده ، ومنه قرء النجم لوقت طلوعه وافوله ، ويطلق على الحيض ، وقيل : اصله : الخروج من طهر الى حيض او عكسه ، وقيل . القرء : الحيض مع الطهر ، وقيل: السر فى جمع القروء على الكثرة مع وجود جمع القلة اقراء هو انه لما جمع المطلقات جمع القروء ، لان كل مطلقة تتربص ثلاثة أقراء فبهذا الاعتبار يصير عدد الأقراء كثيرة يتناسب معه جمع الكثرة ، وعلى هذا التوجيه لا يكون هناك جمع كثرة وضع موضع جمع القلة ، وانما الجمع هنا باق على أصله فى الكثرة وقيل : ان قروءا جمع قرء بفتح القاف ، فلو جاء على أقراء لجاء على غير القياس ، لان افعالا لا يطرد فى فعل بفتح الفاء ، ويرى الدكتور محمد أبو موسى : أن جمع الكثرة فى قروء يشير الى وجوب الاحتياط فى استيفاء مدة العدة حتى لا تتعجل المرأة المطلقة عدتها ، وقد أشار الى هذا بعض النحاة(٣) •

ويرى الزمخشرى أن قوله تعالى : « بأنفسهن » على العكس مما سبق قد وضع فيه جمع القلة مكان جمع الكثرة فيقول : « ألا ترى الى قوله « بأنفسهن » وما هى الا نفوس كثيرة » ويفهم من كلامه أن هذا

---

(٣) البلاغة القرآنية ص ٢٢٨ •

الجمع مثل سابقه جاء على الاتساع ، ولكنه بين السر البلاغى فى ذكر الأنفس فيقول : فان قلت : هلا قيل : يتربصن ثلاثة قروء كما قيل : تربص أربعة أشهر ، وما معنى ذكر الأنفس ؟ قلت : فى ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص ، وزيادة بعث لأن فيه ما يستنكف منه فيحملن على أن يتربصن ، وذلك أن أنفس النساء طوامح الى الرجال فأمرن أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص(٤) .

فالتعبير بالنفس هنا اشارة الى أن نفس المرأة شديدة الميل الى اللذات والشهوات فعليها ان تاقت نفسها الى الرجل فى وقت العدة أن تجاهد نفسها وأن تغالب هواها وأن تنتظر حتى تكتمل العدة بدليل قوله تعالى : « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر » ، واذا كان التعبير بأنفسهن فيه ايماء الى مجاهدة نفوسهن حينما تغالبهن الشهوة ويتحرقن الى الرجال فان التعبير بقوله تعالى : « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن » فيه لذع أقوى وأشد وأنكى ، وكأنه يشير الى أن بعضهن يفعلن هذا ففى هذا الأسلوب ترق وتدرج من الاشارة والايماء الى ما هو كالتصريح .

ويرى الدكتور محمد أبو موسى : أن الأنفس استعملت هنا مكان جمع الكثرة لتشير الى معنى التقليل والتهوين من شأن هؤلاء النسوة ، وأنهن يضعفن أمام نوازع النفس وشهواتها فالآية الكريمة تحدد عدة المرأة المطلقة ، وتوحى بكمال هذه العدة وتمامها غاية التمام وأسلوبها فيه تشديد على المطلقة فى هذا الموقف وفيه لذعات . فكلمة «يتربصن» تشير الى أنها تعالج أمر نفسها الطامحة الى الزواج(٥) .

---

(٤) الكشاف ٣٦٥/١ .
(٥) البلاغة القرآنية ٣٢٩ .

وفى قوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة» يقول الزمخشرى: فان قلت : هلا قيل « سبع سنبلات » على حقه من التمييز بجمع القلة كما قال : « وسبع سنبلات خضر » ؟ قلت : هذا لما قدمت عند قوله: « ثلاثة قروء » من وقوع أمثلة الجمع متعاورة مواقعها(٦) .

يعنى أنه من باب الاتساع ووقوع أحد الجمعين موقع الآخر ، وهذا الذى قاله الزمخشرى لا يستقيم لا سيما فى ميدان ابراز النكات البلاغية لإستعمال صيغة وايثارها على غيرها ، فكلامه هذا أشبه بكلام من قال فى كل شىء قدم انه قدم للعناية والاهتمام .

لكن ما سر هذه العناية وهذا الاهتمام هذا ما نبه اليه عبد القاهر، فالزمخشرى يرى فى كل جمع وضع موضع الآخر أنه من باب الاتساع، لكن فى الحقيقة هناك ، سر بلاغى فى استعمال جمع الكثرة فى قوله تعالى : « سبع سنابل » فيه اشارة الى مضاعفة الثواب وكثرته ، فجمع القلة لا يوحى بهذه الكثرة هذا بالاضافة الى ما قاله السمين الحلبى وهو : « أن المميز ان كان جمع كثرة فان كان من باب مفاعل « كسنابل » أوثر على جمع التصحيح كقول ثلاثة أحامد ، وثلاث زيانب ، ويجوز قليلا « ثلاثة أحمدين ، وثلاث زينبات »(٧) .

فيكون ما جاء فى النظم الكريم على الوجه المختار وأما فى قوله تعالى: «وسبع سنبلات خضر» فقد عدل عن «سنابل» كما بينا الى «سنبلات» لأجل مجاورته سبع بقرات، هذا بالاضافة الى أن المقام هنا يختلف عن

---

(٦) الكشاف ١/٣٩٣ .
(٧) الدر المصون ٢/٥٨٠ .

سابقه فالمقام هناك مقام اخبار بمضاعفة ثواب انفاق المال فى سبيل الله وكثرته كما يوحى به التشبيه فيناسبه جمع الكثرة .

بينما المقام هنا يختلف اذ يفيد التهوين والتقليل من شأن السنبلات الخضر لما روى من أنه رأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعا آخر يابسات قد استحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ...(٨) فيناسبه جمع التصحيح المستفاد منه القلة .

وفى قوله تعالى : « لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » جاء بجمع القلة هنا دون جمع الكثرة « أذلاء » ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلا ، وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب .

فالاشعار بالقلة جاء من صيغة جمع القلة ، وهم مع قلتهم موصوفون بالذلة أى الضعف فى العدد والعدة اذ المقام للامتنان عليهم بالنصر فى هذه الحال الموجب للمسارعة الى التقوى وحق المنعم بشكره على نعمه .

وفى موضع آخر نجد جمع القلة يتبع بوصف يفيد الكثرة لأن المقام يقتضى الكثرة كما فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة .. » فى الآية نهى المؤمنين عن أكل الربا مع افادة توبيخ المتعاملين بالربا المؤدى الى تضعيف المال عن طريق زيادة الدين لزيادة الأجل مما يؤدى الى كثرة المال ومضاعفته فى أيديهم ، « فأضعافا » جمع ضعف وهو جمع قلة ، ولكن لما كان المقام للتكثير أتبع بوصف يدل على الكثرة وهو قوله « مضاعفة » .

---

(٨) الكشاف ٢/٣٢٢ .

وقد يعبر بجمع القلة الا لأنه قليل في نفسه وانما قلته لاضافته الى مقابله كما في قوله تعالى : «ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين » يقول الزمخشرى : وانما قال : « أعين » دون عيون لأنه أراد أعين المتقين ، وهي قليلة بالاضافة الى عيون غيرهم قال تعالى : « وقليل من عبادى الشكور »(٩) .

هذا بالاضافة الى القلة المستفادة من تنكير « أعين » أى أن التقليل مستفاد من صيغة جمع القلة ومن تنكيرها ، وقد ذكر الزمخشرى أن تنكير « أعين » لأجل تنكير القرة لأن المضاف لا سبيل الى تنكيره الا بتنكير المضاف اليه ، أما تنكير المضاف فلافادة معنى التفخيم والتعظيم أى هب لنا من أزواجنا وذرياتنا سرورا لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره .

وقد يكون التقليل في العدد من عدة وجوه كما في قوله تعالى : « ان هؤلاء لشرذمة قليلون » فلفظة الشرذمة تفيد القلة اذ معناها : الطائفة القليلة ، ومنها قولهم « ثوب شراذم » للذى بلى وتقطع قطعا ، وهذا يفهم منه بالاضافة الى القلة التهوين والتحقير من شأن هذه الطائفة من بني اسرائيل ، ثم جعلهم قليلا بالوصف الذى استفيد منه القلة بنيته ، ثم استفيدت القلة أيضا من الجمع «قليلون» ليعلم أن كل حزب منهم قليل ، واختير جمع السلامة أيضا الذى هو للقلة حيث عدل عن « قلائل » ، وقد يجمع القليل على أقله ، فهذه أربعة وجوه استفيد منها التقليل ، وذكر ابن المنير وجها خامسا بالاضافة الى ما قاله الزمخشرى وهو أن جمع الصفة ، والموصوف مفرد قد يكون مبالغة في لحوق ذلك الوصف بالموصوف وتناهيه فيه بالنسبة الى غيره من

(٩) الكشاف ٣/

الموصوفين به كقولهم : زيد جياع مبالغة فى وصفه بالجوع ، فكذلك ههنا جمع « قليلا » وكان الأصل افراده فيقال لشرذمة قليلة كما أفرد فى قوله : « كم من فئة قليلة » ليدل بجمعه على تناهيهم فى القلة وقد ذكر الزمخشرى هذا المعنى الذى وجه به ابن المنير وصف المفرد بالجمع للمبالغة والتأكيد عند قوله تعالى : « فاضرب لهم طـريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى » حيث ذكر أن « يبســا » صفة لـ « طريقا » من وصف المفرد بالجمع لكون « يبسا » جمع يـابس التأكيد أى تأكيد وصف الطريق باليبس فجعل الطريق لفرط يبسهـا كاليبس ، والمعني : ليس فيها ماء ولا طين ولا ندى ، أو يقدر كل جزء من أجزاء الطريق طريقا يابسا فكانت كذلك ، لأنها كانت اثنى عشر طريقا لكل سبط طريق ، ونحو هذا المعني ما ذكره القطامي :

كأن قتود رحلى حين ضمت   حوالب غزرا ومعى جياعا

جعله لفرط جوعه كجماعة جياع .

ولا شك أن المقام يقتضى هذه القلة المبالغ فيها على نحو ما بينا ليكون المراد منها أقل القليل ، وهذا يؤدى الى التهوين والتحقير من شأنها لأن هذه الجملة « ان هؤلاء لشرذمة قليلون » قيلت على لسـان فرعون — لعنه الله — وقد حكاها القرآن عنه ، وذلك عندما أعلن النفير العام وأمر بما يسمى فى عصرنا « بالتعبئة العامة » فأرسل فى المدائن حاشرين يجمعون له الجنود ليدرك موسى وقومه ، حيث أوحى الله اليه أن يسرى بعباده وأن يرحل بهم ليلا ، وأخبره المولى عز وجل بأن فرعون سيتبعهم بجنوده ، فلكى يطمئن فرعون جنوده التى جمعت له من المدائن ويرفع من معنوياتهم قلل من شأن عدوه تقليلا يؤدى الى تحقيرهم والتهوين من شأنهم ، ولمـا كان فرعون وملؤه يعلمون مدى

قوة موسى — عليه السلام — وجنده مما يؤدى الى الشك فى هـذه المقولة ، أكدها بان واللام لكى يزيل الشك من نفوس الجنود فقال : « ان هؤلاء لشرذمـة قليلون » ففيم اذن ذلك الاهتمـام بـأمرهم والاحتشاد لهم وهم شرذمة قليلون •

وقد يأتى جمع القلة فى سياق الكثرة ، وقد تقدمه — أى جمع القلة — نفى لينبه بنفى القلة على نفى الكثرة من باب أولى وذلك فى قوله تعالى « ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم » من المعلوم أن كلمات الله تعالى غير متناهية ، ولكن الله تعالى يقرب الينا هـذا المعنى فى صورة محسوسة مشاهدة منتزعة من البيئة لكى تعيها عقولنا وهى لو أن جميع ما فى الأرض من شجر تحول أقلاما ، وجميع ما فى الأرض من بحر تحول مدادا بل ان هذا البحر تمده سبعة أبحر كذلك ، وجلس الكتاب يسجلون كلمات الله المتجددة الدالة على علمه المعبرة عن مشيئته فما الذى يحدث ؟ لقد نفدت الأقلام ونفد المداد ونفدت الأشجار ونفدت البحار ، وكلمات الله باقية لم تنفذ لأنها غير متناهيـة فهذه أجرام محدودة ، وكلمات الله غير محدودة ، ومهما يبلغ المحدود فسينتهى ، ويبقى غير المحدود لم ينقص شيئا على الاطـلاق •• فالمقام هنا للكثرة المطلقة ، واذا كان الأمر كذلك فلماذا عدل عن جمع الكثرة الى جمع القلة فى قوله : « ما نفدت كلمات الله » ؟

يقول الزمخشرى : فان قلت : الكلمات جمع قلة ، والموضع موضع التكثير لا التقليل ، فهلا قيل : كلم الله ؟ قلت : معناه أن كلماته لا تفى بكتابتها البحار فكيف بكلمه •

وفى ذلك دلالة على أن هـذه الأشياء على كثرتها لا تبلغ تسجيل

القليل من كلمات الله المتمثلة فى علمه وارادته ومشيئته فما بالك بالكثير من كلمه سبحانه وتعالى فنبه بنفى نفاد القليل من كلماته — سبحانه — على نفى الكثير من باب أولى .

ومن وضع القلة موضع الكثرة قوله تعالى « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم .. » فالمخرج بماء السماء ثمار كثيرة فلم جاء بجمع القلة ؟

ويوضح الزمخشرى هذا التساؤل فيقول : فان قلت : فالثمر المخرج بماء السماء كثير جم ، فلم قيل الثمرات دون الثمر والثمار ؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما : أن يقصد بالثمرات جماعة الثمرة التى فى قولك فلان أدركت ثمرة بستانه ، تريد ثماره فهو جمع للثمرة المراد بها الكثرة وهى الثمار فيكون أبلغ ، ولأن الثمار اذا تلاحقت واجتمعت يطلق عليها الثمرة . ونظيره قولهم : كلمة الحويدرة لقصيدة ، وقولهم : فلان ألقى كلمة فى المحفل والمراد بها خطبة أو محاضرة .. وعلى هذا يكون جمع الثمرات جمعا للثمرة المراد بها جمع الكثرة .

والوجه الثانى أن الجموع يتعاور بعضها بعضا أى أن جمع القلة فى الآية وقع موقع جمع الكثرة ، وكما فى قوله تعالى « كم تركوا من جنات وعيون » (١٠) لأن كم للتكثير فلا يجوز أن يميز بجمع القلة الا على أنه واقع موقع جمع الكثرة .

ويلاحظ أن الجنة فى القرآن لم تجمع على جنان فى أى موقع

---

(١٠) الكشاف ١/٢٣٥ .

ولعل ذلك لثقل الكلمة ونبوها عن الذوق ، وعدم تلاؤمها في النظم القرآني لفوات الانسجام الصوتي في صيغة الجمع حيث لم يفصل بين التنوين سوى الف المد وهو فاصل ضعيف •

وبين الآلوسي ما يومىء اليه جمع القلة بناء على ما هو حاصل من ثمرات الدنيا المشاهدة فانها مهما كثرت فهي قليله بالنسبة الى ما أعده الله للمؤمنين في الآخرة فهي كثيرة جدا فيقول :

وأتى بجمع القلة مع أن الموضع موضع الكثرة •• للايماء الى أن ما برز في رياض الوجود بفيض مياه الجود كالقليل بل أقل القليل بالنسبة لثمار الجنة ، ولما ادخر في ممالك الغيب (١١) •

وقد اعترض السمين الحلبي على ما ذهب اليه الزمخشري من وقوع جمع القلة موقع جمع الكثرة مبينا أنه لا حاجة تدعو الى هذا لأن جمع السلامة المحلى بأل التي للعموم يقع للكثرة فلا فرق اذا بين الثمرات والثمار ولذلك رد المحققون قول من رد على حسان ابن ثابت — رضي الله عنه — قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

قالوا : كان ينبغي أن يقول : الجفان ، وسيوفنا لأنه أمدح وليس بصحيح لما ذكرت (١٢) •

وقد يؤتى بجمع القلة لافادة التنويع كما في قوله تعالى: «ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » أنكاثا جمع نكث بمعنى منكوث

---

(١١) روح المعاني للألوسي ١٨٩/١ •

(١٢) الدر المصون ١٩٤/١ •

أى منقوض ، وهذه الآية ينهى الله فيها المسلمين عن نقض العهود المبرمة بينهم وبين الآخرين ولا يكون حالهم فى هذا النقض كحال المرأة التى عمدت الى غزلها بعد ما أحكمته وأبرمته فنقضته وجعلته أشتاتا أى أنواعا من النكث والنقض ، فلم يبق النقض على نمط واحد وانما صار أنماطا وأنواعا متعددة لما فى ذلك من الدلالة على حماقتها وشدة خرقها ولذلك أوثر الجمع فى « أنكاثا » على الافراد لتنويع النكوث ، وأوثر جمع القلة لملاءمته للمقام الذى يقتضى القلة اذ كلها جزئية فى الآية تحقر وتقلل من شأن من ينقض العهود الذى تشبه حالته هذه بحالة تلك المرأة الملتاثة فى عقلها المضطربة فى تصرفاتها ، ومن ثم عدل النظم الكريم عن ذكرها باسمها لاستهجان التصريح به الى الوصف المستفاد من جملة الصلة للاشعار بأن الناقضة جامعة لمعان توجب انحطاط شأنها ، وضعف عقلها .

وقد يجرى جمع القلة مجرى جمع الكثرة لعدم ورود غيره — أى غير جمع القلة — فى السماع فيتعين ليكون صالحا لافادة القلة المستفادة من صيغته ، أو افادة الكثرة باجرائه مجرى جمع الكثرة على حسب المقام كما فى قوله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » .

يقول الزمخشرى : والأفئدة فى فؤاد كالأغربة فى غراب وهو من جموع القلة التى جرت مجرى جموع الكثرة والقلة اذ لم يرد فى السماع غيرها كما جاء شسوع فى جمع شسع لا غير فجرت ذلك المجرى(١٣) .

والمقام هنا للكثرة ، لأن الخطاب فى قوله تعالى « أخرجكم »

---

(١٣) الكشاف ٢/٤٢٢ .

عام وقد تأتى مفيدة للقلة فى سياق آخر لأن المفهوم من كلام الزمخشرى أنها من الجموع المشتركة بين الجمعين تستعمل تارة فى الكثرة وتارة فى القلة على حسب المقام .

ومن قيام جمع القلة مقام جمع الكثرة ما نجده فى جمع آية على آيات فى قوله تعالى : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » أى دلالات على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وعلمه ، ولا شك أن هذه الآيات كثيرة وعظيمة لدلالة السياق عليها فان الآيات المبثة فى خلق السموات والأرض وابداعها كثيرة عظيمة، وجمع القلة هنا قائم مقام جمع الكثرة ولعل السر فى ذلك : أن فيه اشارة وايماء الى أن الآيات الظاهرة وان كانت كثيرة فى نفسها الا أنها قليلة فى جنب ما خفى منها فى خزائن العلم ومكامن الغيب ولم يظهر بعد » (١٤) .

وقد ينبه بجمع القلة على الكثرة كما فى قوله تعالى « شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم » أنعم جمع قلة ، ونعم الله على خليل الله ابراهيم — عليه السلام كثيرة فلماذا عبر بالقلة هنا ؟ والجواب أنه أوثر صيغة جمع القلة للايذان بانه عليه السلام لا يخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة ، وللتصريح بأنه — عليه السلام — على خلاف ما هم عليه من الكفران بانعم الله تعالى(١٥) .

ويأتى جمع القلة فى مقام البشرى للمؤمنين بدخول الجنات كما فى قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم

---

(١٤) روح المعانى للالوسى ١٥٦/٢ .

(١٥) روح المعانى ٢٥٠/٥ .

الفصحى من حيث ان الفعل وما جرى مجراه اذا قدم على الفاعل وحد تقول : تخشع أبصارهم ، ولا تقول : تخشعن أبصارهم ، وحملوه على لغة طىء يقولون : أكلونى البراغيث .

وفى قوله تعالى : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »(٢١) جمع آية على آيات جمع مؤنث سالم وهو لا يفيد الكثرة وانما يفيد القلة ، وآيات بمعنى دلالات على وحدانية الله تعالى وكمال علمه وقدرته فالمقام يقتضى الكثرة لا القلة ، ولذلك قيل : ان جمع القلة هنا قائم مقام جمع الكثرة ،دلالة التنوين فيها اذ يفيد التفخيم والتعظيم كما وكيفا أى آيات كثيرة عظيمة .

وقيل فى ذلك رمز الى أن الآيات الظاهرة وان كانت كثيرة فى نفسها الا أنها قليلة فى جنب ما خفى منها فى خزائن العلم ومكامن الغيب (٢٢) .

وفى قوله تعالى : « وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » يقول الآلوسى ان التنوين فى « رجالا » و « نساء » للتكثير ، و « كثيرا » نعت لـ « رجالا » مؤكد لما أفاده التنكير ، والافراد فى « كثيرا » باعتبار معنى الجمع فيها أو العدد أو لرعاية صيغة فعيل فانه يراد منها الجمع ، وليس المراد بالرجال والنساء البالغين والبالغات فقط بل الذكور والاناث مطلقا ولعل ايثارهما على الذكور والاناث لتأكيد

---

(٢١) آل عمران آية ١٩٠ .

(٢٢) انظر : روح المعانى للآلوسى ١٥٦/٤ بتصرف .

قراءة شاذة وهى قراءة عبد الله بجمع التكسير : « فالصوالح قوانت حوافظ » علق عليها ابن جنى فى المحتسب بقوله :

« وهى أشبه بالمعنى لاعطائها الكثرة وهى المقصودة هنا »(١٧) •

وعلى هذا تكون الكثرة فى « الصالحات » ليست مستفادة من صيغة الجمع وانما هى مستفادة من « ال » المفيدة للاستغراق وهى للعموم ، واذا ثبت أن الصالحات جمع كثرة لزم ان يكون « قانتات » « حافظات » للكثرة أيضا لأنه خبر عن الجميع فيفيد الكثرة ألا ترى أنك اذا قلت : « الرجال قائمون » لزم أن يكون كل واحد من الرجال قائما ، ولا يجوز أن يكون بعضهم قاعدا(١٨) •

ونعود الى الغرفات ثانية فنقول : وردت هذه اللفظة جمع مؤنث كما مر ، وجمع تكسير فى آيتين فى قوله تعالى « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا » (العنكبوت : ٥٨) وقوله تعالى : « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنيــة تجرى من تحتها الأنهار » (الزمر : ٢٠) ووردت مفردة فى آية واحدة فى قوله تعالى : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا » (الفرقان : ٧٥) فكيف نوفق بين هذه المواضع كلها لتتلاقى جميعا فى معنى التعظيم والتكثير المناسبين للمقام نقول — وبالله التوفيق — :

ان ورودها نكرة وجمع تكسير فى موضعين يفيــدان التعظيم والتكثير • التعظيم مفاد من مجيئها نكرة ، والتكثير مستفاد من صيغة

---

(١٧) المحتسب ١/١٨٧ •

(١٨) انظر : الدر المصون ٣/٦٧٢ •

جمــع التكسير ، وأما ورودها جمع تصحيح فلما ذكرنا من أن الكثرة مستفادة من أداة التعريف « أل » المفيدة للعموم ، وأما ورودها مفردة فالافادة الجنس وهو تحته أفراد كثيرة واستفيد منه أيضا سمو الدرجة ورفعة المنزلة ، فالغرفة: الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها ولذلك يقول الزمخشري : المراد : يجزون الغرفات وهي العلالى فى الجنة فوحد اقتصارا على الواحد على الجنس والدليل على ذلك قوله تعالى : « وهم فى الغرفات آمنون » (١٩) ٠

أى والدليل على أن المراد بالغرفة الجنس مجيئها افرادا وجمعا فى « سبأ » فالجمع دل على أن المراد بالغرفــة الجنس لتتــوافق القراءتان ، ويمكن أن يقال : القرينة هى اثبات الغرفة الواحدة للجماعة وأما فائدة العدول فى هذا المقام فلاتحاد ترتب الحكم على الأوصاف المشتركة بخلافه فى « سبأ » فانه مرتب على الايمان والعمل الصالح مطلقا ، ولا ارتياب فى التفاوت فى الأعمال فناسب الجمع ليتفاوت الجزاء بحسب العاملين وأما الافراد فيها فمن باب حمل المطلق على المقيد (٢٠) ٠

واسم الاشارة « أولئك » يفيد توكيد استحقاق الخبر للمبتدأ وهو ما بعد اسم الاشارة من نيل الدرجة العالية والمنزلة العظيمة فى الغرفات فالمشار اليهم جديرون بهذه المنزلة من أجل تلك الأوصاف العظيمة التى أجريت على عباد الرحمن ، فكان من حق الظاهر أن يجاء بدل بما صبروا بما فعلوا ليكون كناية عن تلك المذكورات بأسرها فما فائدة العدول ؟

---

(١٩) الكشاف ١٠٢/٣ ٠

(٢٠) تحفة الأشراف ٨٠٨ القسم الثانى ٠

قيل : فائدته : الايذان بأن ملاك العبادات الصبر ، وأن حبس النفس على طاعة الله هي الطلبة ، وقطعها عن مشتهاها هي المرام .

وفي قوله تعالى : « قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن » نجد الضمير فى قوله «فطرهن» يعود على السموات والأرض وجاء على جمع القلة أولا وثانيا هذا الضمير لمن يعقل . أما اعتبار القلة فلأن السموات والأرض أى عددهما لم يبلغ حد الكثرة ، وهذا ما قاله أبو حيان باعتبار أن السموات سبع والأرض واحدة وناقش السمين الحلبى أبا حيان فى ما ذهب اليه بأن السموات سبع والأرض سبع فيكون العدد أربع عشرة وهو فوق حد جمع الكثرة فيكون ما ذهب اليه أبو حيان غير مسلم .

ولكنى أرجح أن أبا حيان يقصد مجموع العدد فى السموات وهو سبع واعتبار الوحدة فى الأرض فيكون المجموع ثمانية وهو دون جمع القلة كما قلت .

أما اعتبار اعادة ضمير من يعقل على السموات والأرض تشبيهة لها بمن يعقل اذ أن لها طاعة وانقياد ، وقد وصفت فى مواضع فى القرآن بوصف من يعقل لما صدر منهن من الأحوال التى تدل على أنها من قبيل من يعقل فان الله تعالى أخبرنا بقوله « أتينا طائعين » وبقوله عليه السلام أطت السماء وحق لها أن تئط .

وورد اسم الفاعل مجموعا جمع كثرة على قراءة أكثر القراء فى قوله تعالى « خشعا أبصارهم » وهذه القراءة هى التى آثرها الرسم العثمانى ، وقرأ بعضهم بالافراد « خاشعا » بالتذكير ، وخاشعة بالتأنيث ، وبعض المفسرين يرون أن قراءة الافراد جارية على اللغة

الفصحى من حيث ان الفعل وما جرى مجراه اذا قدم على الفاعل وحد تقول : تخشع أبصارهم ، ولا تقول : تخشعن أبصارهم ، وحملوه على لغة طىء يقولون : أكلونى البراغيث .

وفى قوله تعالى : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »(٢١) جمع آية على آيات جمع مؤنث سالم وهو لا يفيد الكثرة وانما يفيد القلة ، وآيات بمعنى دلالات على وحدانية الله تعالى وكمال علمه وقدرته فالمقام يقتضى الكثرة لا القلة ، ولذلك قيل : ان جمع القلة هنا قائم مقام جمع الكثرة ، ودلالة التنوين فيها اذ يفيد التفخيم والتعظيم كما وكيفا أى آيات كثيرة عظيمة .

وقيل فى ذلك رمز الى أن الآيات الظاهرة وان كانت كثيرة فى نفسها الا أنها قليلة فى جنب ما خفى منها فى خزائن العلم ومكامن الغيب (٢٢) .

وفى قوله تعالى : « وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » يقول الآلوسى ان التنوين فى « رجالا » و « نساء » للتكثير ، و « كثيرا » نعت لـ « رجالا » مؤكد لما أفاده التنكير ، والافراد فى « كثيرا » باعتبار معنى الجمع فيها أو العدد أو لرعاية صيغة فعيل فانه يراد منها الجمع ، وليس المراد بالرجال والنساء البالغين والبالغات فقط بل الذكور والاناث مطلقا ولعل ايثارهما على الذكور والاناث لتأكيد

---

(٢١) آل عمران آية ١٩٠ .

(٢٢) انظر : روح المعانى للآلوسى ١٥٦/٤ بتصرف .

الكثرة والمبالغة فيها بترشيح كل فرد من الأفراد المبثوثة لمبدئية غيره عن طريق التناسل •

وقيل : خص الكبار بالذكر هنا لأنه فى معرض المكلفين بالتقوى واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بهـا ، لأن الحكمـة تقتضى أن يكن أكثر اذ للرجل أن يزيد فى عصمته على واحدة بخلاف المرأة • أو هو من باب الاكتفاء بوصف أحدهما للتغليب وهم الرجال دون النساء مع ما فى مادة الفعل « بث » أيضا من الدلالـة علـى الكثرة •

الفصل الرابع

وضع الواحد موضع الجمع
ووضع الجمع موضع الواحد

أولا ــ وضع الواحد موضع الجمع :

فى قوله تعالى « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشـاوة » السمع لفظ مفرد ، وقد أضيف الى ضمير الجمع ، والجمع لا يكون لهم سمع واحد ، فكان ينبغى أن يقول « وأسماعهم » كما قال « قلوبهم » و « أبصارهم » وهما قد اكتنفا لفظة السمع ، فلم وحد السمع اذن ؟

ويفهم من كلام الزمخشرى أن الواحد وهو السمع قد وضـع موضع الجمع « الأسماع » المراد به الآذان حتى يتناسب مع الختم ، لأن الختم على الآذان أى ختم الله على آذانهم السامعة ، فلا يصل الى قلوبهم من جهتها ادراك ، كما أطلق الشاعر « البطن » والمراد « البطون » فى قوله :

كلوا فى بعض بطنكم تعفوا ⁂ فان زمانكم زمن خميص

والمراد : اقتنعوا بالقليل من الطعام تعفوا عن تناول الحرام .

ولم يجمع السمع لأنه مصدر ، وقيل : الكلام على حذف مضاف أى مواضع سمعهم أو يكون كنى به عن الأذن .. أو أنه لمـا أضيفت السمع الى ضمير الجمع دل على أنه يراد به أسماع الجماعة ، فيكون

قد عبر بالسمع وأراد الأسماع ، وهو معلوم من ضمير الجمع كما قال الشـــاعر :

بها جيف الحسرى فأما عظـامها فبيض وأما جلدها فصليب

انما يريد جلودها ، فوحد لأنه قد علم أنه لا يكون للجماعة جلد واحد وانما وحد السمع لأن لكل واحد منهم سمعا واحدا كما يقال : أتاني برأس الكبشين يعني رأس كل واحد منهما ، ونقول : انما وحد السمع لأن مدركاته نوع واحد ناتج عن الصوت ، وأما البصر والقلب فمدركاتهما أنواع متعددة ، وقدم السمع على البصر في معظم آيات القرآن الكريم ، لأن السمع يخلقه الله في الجنين قبل البصر فلتقدمه في الخلق قـدم في الترتيب •

وقيل : ان السمع قدم لعموم مدركاته وشمولها ، فالبصر لا يدرك الا بعض الموجودات الحسية القريبة المواجهة للرائي بينما السـمع يدرك من كل الجهات فهو أعم •

ثم ان العلوم الحاصلة بالسمع أضعاف أضعاف العلوم الحاصلة بالبصر فهو يدرك الموجود والمعدوم والحاضر والغائب والقريب والبعيد والواجب والممكن والممتنع ، وكذلك فان السعادة انما تنال بالسمع اذ هو الطريق الى طاعة الرسل والايمان بما جاءوا به فالايمـان طريقـه السمع(١) ولأن السمع شرط النبوة بخلاف البصر ، ولأن السمع متى بطل بطل النطق ، والبصر اذا بطل لم يبطل النطق ولأن بالسمع تصل نتائج عقول البعض الى البعض • وقدم البصر علي السمع في ثلاثة مواضع في القرآن هي : قوله تعالى أبصر به وأسمع في سورة الكهف

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ١/٧١ •

وفى سورة السجدة : ربنا أبصرنا وسمعنا ، وفى سورة هود فى قوله تعالى مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ..

ومن وضع الواحد موضع الجمع ما جاء فى قوله تعالى : « ثم نخرجكم طفلا » .. فالطفل مفرد فى اللفظ ، ولكنه يحمل معنى الجمع لدلالته على الجنس ، ولذلك وحده ، والعرب قد تسمى الجمع باسم الواحد ، قال الشاعر :

يلحينني فى حبها ويلمنني ان العواذل ليس لى بأمير

ولم يقل أمراء ، ومنه قوله تعالى : « أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » .

وقال المبرد : هو اسم يستعمل مصدرا كالرضا والعدل فيقع على الواحد والجمع (٢) . كما تقول : رجل عدل ، ورجال عدل .

وقد يكون الغرض من الافراد استقلال الفعل وهو الاخراج بكل طفل منكم واليه أشار الزمخشرى بقوله : ويحتمل : نخرج كل واحد منكم طفلا ، وقد جمع هذا اللفظ فى قوله تعالى : « واذا بلغ الأطفال منكم الحلم .. » الآية حيث لم يرد الجنس هنا كما فى الآيتين السابقتين وانما أراد النوع وهم أطفال الأحرار دون المماليك ، لأنهم أى المماليك قد تقدم حكمهم سواء أبلغوا الحلم أم لم يبلغوه .

ومن الألفاظ التى تستعمل للواحد والجمع والمقام هو الذى يحدد المراد منهما هى : الصديق والعدو والخليط والقطين . وقد جاء لفظ الصديق فى القرآن مرادا به الجمع فى موضعين ، الموضع الأول فى

---

(٢) تفسير القرطبى ٤٤٠٤/٦ .

بقوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج .. الى قوله تعالى أو ملكتم مفاتحه أو صديقكم » اذ المراد أو بيوت أصدقائكم فوضع الواحد موضع الجمع ، والموضع الثانى فى قوله تعالى : « فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » أى فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء لأنهم كانوا يعتقدون فى أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله ، وكان لهم الأصدقاء من شياطين الانس أو أرادوا أنهم وقعوا فى مهلكة علموا أن الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم فقصدوا بنفيهم ما يتعلق بهم من النفع لأن مالا ينفع حكمه حكم المعدوم .

والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام وهو الذى يهمه ما يهمك أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخاص .

ويبين الزمخشرى السر فى جمع الشافع وافراد الصديق فقال : فان قلت : لم جمع الشافع ووحد الصديق ؟ قلت : لكثرة الشفعاء فى العادة وقلة الصديق ، ألا ترى أن الرجل اذا امتحن بارهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة له وحسبة وان لم يسبق له بأكثرهم معرفة ، وأما الصديق وهو الصادق فى ودادك الذى يهمه ما أهمك فأعز من بيض الأنوق ، وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال : اسم لا معنى له .

وقد ضرب المثل بعزة بيض الأنوق وهو طائر الرخمة فقيل : أعز من بيض الأنوق ، لأنها تحرزه فلا يظفر به لأن أوكارها فى رءوس الجبال والأماكن الصعبة ، وفى عزة الصديق الصادق قال الشاعر :

صاد الصديق وكاف الكلماة معا لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا

ويقول الشافعي رضي الله عنه :

مـــا في زمانك من ترجو مودته
ولا صديق اذا جار الزمان وفى

فعش فريدا ولا تركن الى أحد
ها قد نصحتك فيما قلته وكفى

وقد وقعت لفظة عدو موقع الجمع في آيات كثيرة في القرآن منها قوله تعالى : « فانهم عدو لى الا رب العالمين » .

وقوله تعالى : « أفتتخذونه وذريتـــه أوليـــاء من دونى وهم لكم عـــــدو » الكهف : ٥٠ .

وقوله تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين » الزخـــــرف : ٦٧ .

وقوله تعالى « وكذلك جعلنا لكل نبى عـــدوا من المجرمين » وفى قوله تعالى : « ترهبون به عدو الله وعدوكم » الأنفال : ٦٠ .

وقوله تعالى : « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو » أى اهبطـــوا متعادين يقول السمين : وأفرد لفظ عدو وان كان المراد به جمعا لأحـــد وجهين : اما باعتبار لفظ بعض فانه مفرد واما لأن عدوا أشبه المصادر في الوزن كالقبول فلذلك لم يجمع ، والعدو والصديق يجيئان في معنى الوحـــدة والجماعة قال الشاعر :

وقـــوم عـــلى ذوى مئرة أراهم عدوا وكانوا صديقا

ومن وضع الواحد موضع الجمع ما نجده في قراءة من قرأ فخلقنا

المضغة عظما فكسونا العظم لحما ، وقد بين الزمخشري العظم على هذه القراءة وقع موقع العظام وبين السر في ذلك وهو أمن اللبس لأن الانسان ذو عظام كثيرة . وفي الآية قراءة أخرى وهي :

« فخلقنا المضغة عظما فكسونا العظام لحما .. » فمن قدم الافراد نظر الى اللفظ الذي هو انسان وسلالة ونطفة ثم عقب بالجماعة لأنها هي الغرض وهذه القراءة تجري على قوانين النحاة من اجراء الكلام على اللفظ أولا ثم المعنى ثانيا كما تقول : من قام وقعدوا اخوتك ، وان كان يجوز العكس من قاموا وقعد اخوتك الا أنه غير فصيح ، لأنني اذا أتيت بالمعنى أولا فجمعت أكون قد انصرفت عن اللفظ ، ومراجعة اللفظ بعد الانصراف عنه تراجع وانتكاس .

ومن وضع الواحد موضع الجمع كلمة زوج في قوله تعالى : « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » المراد بالزوج هنا الجمع أي أن الواحد قد وقع موقع الجمع بدلالة قوله تعالى : « وان أردتم » فالخطاب لجماعة المكلفين أي وان أردتم استبدال أزواج مكان أزواج لمقابلة الجمع بالجمع .

والنكتة في ذلك أي في وضع الواحد موضع الجمع هو : صحة الحمل أي حمل ارادة الجمع من الواحد مع وضوح المعنى اذ لا يتوهم اشتراك المخاطبين في زوج واحد مكان زوج واحد ولارادة معنى الجمع عاد الضمير من قوله : « احداهن » على « زوج » جمعا ، وقال : « احداهن » ليدل على أن قوله « وآتيتم » المراد منه « وآتى كل واحد منكن احداهن أي احدى الأزواج ، ولم يقل : آتيتموهن قنطارا لئلا يتوهم أن الجميع المخاطبين آتوا الأزواج قنطارا .

والمراد آتى كل واحد زوجه قنطارا ، فدل لفظ احداهن على أن الضمير في « آتيتم » المراد منه كل واحد واحد ، كما دل لفظ « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج على أن المراد استبدال أزواج مكان أزواج ، فأريد بالمفرد هنا الجمع لدلالة « وإن أردتم » ، وأريد بقوله « وآتيتم » كل واحد واحد لدلالة « احداهن » وهي مفردة على ذلك .

ولا يدل على هذا المعنى البليغ بأوجز ولا أفصح من هذا التركيب(٣) .

ومن وضع الواحد موضع الجمع قوله تعالى : « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » المائدة ٥٥ فقد وضع لفظ الولي موضع « أولياء » لأن المذكور جمع وهم الله — عز وجل — ورسوله والمؤمنون، فلو جاء على مقتضى الظاهر لقال « انما أولياؤكم » ولكنه عدل عن الجمع الى المفرد لنكتة بلاغية وهي أن الولاية الحق انما هي لله وحده أصالة وهي لرسوله وللمؤمنين تبعا .

يقول الزمخشري : قد ذكرت جماعة فهلا قيل : انما أولياؤكم ؟ وأجاب بأن الولاية بطريق الأصالة لله تعالى ، ثم نظم في سلك اثباتها لرسوله وللمؤمنين ، على سبيل التبع ، ولو جيء به جمعا فقيل : انما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا ، لم يكن في الكلام أصل وتبع(٤) .

وقيل : ان « ولي » بزنة فعيل ، وقد نص عليه أهل اللسان أنه يقع للواحد والاثنين والجمع تذكيرا وتأنيثا بلفظ واحد قال تعالى : « والملائكة بعد ذلك ظهير »(٥) .

---

(٣) ينظر الدر المصون ٦٣٢/٣ ، ٦٣٣ .
(٤) الكشاف ٦٢٣/١ .
(٥) الدر المصون .

وقد اعترض الألوسى على هذا الوجـه قائلا : انه غير واقـع موقعه ، لأن الكلام فى سر بيانى وهو نكتة العدول من لفظ الى لفظ ، ولا يرد على ما قدمنا أنه لو كان التقدير كذلك لنا فى حصر الولاية فى الله تعالى ثم اثباتها للرسول ﷺ والمؤمنين ، لأن الحصر باعتبـار أنه سبحانه الولى أصالة وحقيقة ، وولاية غيره انمـا هى بالاسناد اليـه عـز شـأنه(٦) .

ويمكن أن يقال : التقدير : « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا» أولياؤكم فحذف الخبر لدلالة السابق عليه ، وفائدة الفصل فى الخبر هى التنبيه على أن كونهم أولياء بعـد كونه سبحانه وليـا على جهة الاختصاص بانما أى اختصاص الولاية بالله تعالى وحده فهو وحـده الحقيق بالموالاة ، وموالاة رسوله والمؤمنين تابعة للولاية لله وحده لأنه سبحانه هو الذى يجعلهم أولياء .

وقد يخبر بالمفرد عن الجمع لا سيما اذا كان المفرد مصدرا كمـا فى قوله تعالى : « انكم اذا مثلهم » فلو طابق الخبر المبتدأ « اسم ان » لقال « أمثالهم » ولكنه أفرد لأنه فى الأصل مصدر فيستوى فيه الواحد المذكر وغيره ، وقيل : لأنه كالمصدر فى الوقـوع على القليـل والكثير أو لأنه مضاف الى جمع فيعم وقد طابق ما قبله فى قوله تعالى : « ثم لا يكونوا أمثالكم » (٧) .

وقوله تعالى : « وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » فحيث قصـد المصدر كما فى هذه الآية أفرد ، وحيث قصد العدد جمع وعلى هـذا يكون تقدير المعنى : ان عصيانكم مثل عصيانهم .

---

(٦) روح المعانى ١٦٦/٦ .

(٧) روح المعانى ١٧٣/٥ .

وقد يؤثر الأفراد على الجمع عند أمن اللبس اذا كان الغرض بيان الجنس دون العدد والواحد يدل عليه كما فى قوله تعالى : « فان طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » فالغرض هنا ليس بيان العدد حتى يجمع ليكون مطابقا لما قبله ، وانما الغرض هنا هو بيان الجنس ولا يحصل لبس لعدم مطابقته لما قبله اذ أن ما قبله جمع لأنه من المعلوم أن الكل لسن مشتركات فى نفس واحدة ومثله « قر الزيدون عينا » ويجوز أعينا ، وحسن الأفراد هنا ما تقدم من محسن تذكير الضمير وافراده فى « منه » وهو أن المعنى : فان طابت كل واحدة نفسا .

وقيل : انما أفرد « نفسا » لأن المراد بها هنا : الهوى ، والهوى مصدر . والمصادر لا تثنى ولا تجمع .

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور : « وجىء بلفظ « نفسا » مفردا مع أنه تمييز نسبة « طبن » الى ضمير جماعة النساء لأن التمييز اسم جنس نكرة يستوى فيه المفرد والجمع ، وأسند الطيب الى ذوات النساء ابتداء ثم جىء بالتمييز للدلالة على قوة هذا الطيب على ما هو مقرر فى علم المعانى من الفرق بين « اشتعل الرأس شيبا » وبين اشتعل شيب رأسى ليعلم أنه طيب نفس لا يشوبه شىء من الضغط والالجاء(٨) .

ومن وضع الواحد موضع الجمع لكونه مصدرا ما جاء فى قوله تعالى : « وعرضوا على ربك صفا » أى مصطفين أو صفوفا أى أنها فى معنى الجمع لأنها مصدر .

ومن وقوع الواحد موقع الجمع ما جاء على زنة فعيل وهو لفظ

---

(٨) التحرير والتنوير ٢٣٢/٤ .

« رفيق » فى قوله تعالى : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » أى صاحبا وهو مشتق من الرفق وهو لين الجانب واللطافة فى المعاشرة قولا وفعلا ، وأوثر الأفراد هنا لأنه على زنة فعيل وهو مما يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث ، كالخليط والصديق ، أو أنه من باب الاكتفاء بالواحد عن الجمع فى باب التمييز لفهم المعنى ، وحسن الافراد هنا لمجيئه فى الفاصلة وهى مما تحسن فى النظم بل ان اللفظة الواقعة فيها قد تغير لأجل استقامة الفواصل كما فى قوله تعالى : « والليل اذا يسر » فقد حذفت الياء فى « يسرى » لأجل استقامة الفواصل ، ولا يخلو النظم من ايجاد نكتة معنوية أيضا .

وهى أن ايثار الافراد هنا لارادة استقلال كل واحد بالحسن مما ذكر فى قوله تعالى : « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » أى حسن كل واحد منهم وأن الرفقة مع واحد منهم فقط ما أحسنها فكيف بها مع كل هؤلاء لاشك أنها غاية فى الحسن ولذلك فان التركيب يحمل معنى المدح والتعجب كأنه قيل : وما أحسن أولئك رفيقا .

وقيل : قد يكون القصد من الافراد هو بيان الجنس مع قطع النظر عن الأنواع ، وقد روعى لفظ « من » فى قوله تعالى : « ومن يطع الله والرسول » فأفرد فى قوله : « رفيقا » وروعى معناها فجمع فى قوله: « أولئك » الا أن البداعة فى ذلك بالحمل على اللفظ أحسن ، وعلى هذا فيكون قد جمع فيها بين الحمل على اللفظ فى « يطع » ثم على المعنى فى « أولئك » ثم على اللفظ ثانيا فى « رفيقا »(٩) .

---

(٩) ينظر : الكشاف ١/ وروح المعانى ٥/٧٨
والدر المصون ٤/٢٥ .

ومن وضع الواحد موضع الجمع ما جاء في قوله تعالى : « والملائكة بعد ذلك ظهير » فالملائكة مبتدأ و « ظهير » خبره ، وقد أخبر بالمفرد عن الجمع لأنه في معناه فما كان على زنة فعيل يستوي فيه الافراد والتثنية والجمع كما سبق في « رفيقا » ، ولعل في ايثار الافراد هنا ليكون الظهراء وهم الملائكة قد تعاضدوا وتساندوا في مؤازرة النبي ﷺ ، وليكونوا عونا له كالبنيان المتماسك الذي يشد بعضه بعضا .

ويبدو أن حدث التظاهر كان عميقا في نفس رسول الله — ﷺ ، وكان ذا تأثير شديد في قلب رسول الله حتى احتاج الأمر الى اعلان موالاة الله وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » ليطيب خاطر الرسول — ﷺ — ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطير(١٠) .

وفي قوله تعالى : « ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله» المراد بالكلمة : عيسى — عليه السلام — وانما سمى عيسى — عليه السلام — بذلك لأنه وجد بكلمة « كن » من دون توسط سبب عادي وحكى عن أبي عبيدة : أن معنى « بكلمة من الله » بكتاب منه والمراد به الانجيل ، واطلاق الكلمة عليه كاطلاقها على القصيدة في قولهم : كلمة الحويدرة للعينية المعروفة بالبلاغة ، فعبر عن الجمع ببعضه ، ومثل هذا أيضا قوله عليه الصلاة والسلام : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد » :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

---

(١٠) في ظلال القرآن ٦/٣٦١٦ .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء » فكلمة مفسرة بما بعدها من قوله تعالى : « ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » (آل عمران : ٦٤) فالمراد بالكلمة هذه الجمل الثلاث ، وهذا من باب اطلاق الجزء والمراد به الكل ، ومنه تسمية القصيدة جمعا قافية ، والقافية جزء منها قال :

أعلمه الرماية كل يوم ... فلما استد ساعده رمانى
وكم علمته نظم القوافى ... فلما قال قافية هجانى

ويقولون كلمة « الشهادة » ويعنون بها : « لا اله الا الله محمد رسول الله » وهذا كما يسمون الشئ بجزئه فى الأعيان لأنه المقصود منه فقالوا لربيبة القوم ، وهو الذى ينظر لهم ما يحتاجون اليه : « عين» فأطلقوا عليه عينا • أو ان هذا من وضع المفرد موضع الجمع كما قال بعضهم :

بما جيف الحسرى فأما عظامها ... فبيض وأما جلدها فصليب

وقيل : أطلقت الكلمة على الكلمات لارتباط بعضها ببعض فصارت فى قوة الكلمة الواحدة اذا اختل جزء منها اختلت الكلمة ، لأن كلمة التوحيد لا اله الا الله هى كلمات لا تتم النسبة المقصودة فيها من حصر الألوهية فى الله الا بمجموعها(١١) •

ومن وضع الواحد موضع الجمع كلمة « اماما » فى قوله تعالى : « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا

---

(١١) الدر المصون للسمين الحلبى ٢/٢٣١ ، ٢٣٣ .

للمتقين اماما » (الفرقان : ٧٤) أى أئمة يقتدي بنا فى الخير ، فاجعلنا هداة مهتدين دعاة الى الخير فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعديا الى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر ثوابا وأحسن مآبا (١٢) .

وفى تأويل المفرد « اماما » بالجمع « أئمة » وردت أقوال متعددة : منها : أنه قال « اماما » ولم يقل « آئمة » بالجمع ، لأن الامام مصدر يقال : أم القوم فلان اماما مثل الصيام والقيام ، أو أراد أئمة كما يقول القائل : اميرنا هؤلاء يعنى أمراءنا وقال الشاعر :

يا عاذلاتى لا تزدن ملامتى ... ان العواذل لسن لى بأمير

أى أمراء . وقيل : عدل عن الجمع وعبر عنه بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس كقوله تعالى : « ثم يخرجكم طفلا » (الحج : ٥)

وقيل : عدل عن الجمع بذكر الواحد لاستقلال كل واحد منهم بجعله اماما للمتقين أى واجعل كل واحد منا اماما ، أو أراد بذكر المفرد اتفاق الكلمة واتحاد الأئمة فى الرآى والمشورة والأحكام وعدم اختلافهم اختلافا يؤدى الى تفريق الأمة وتمزيق أوصالها ، لأن عدم الوحدة واتفاق الكلمة يؤدى الى تقسيم الأمة الى فرق متباينة متناحرة مما يعود بضرره على المجتمع الاسلامى .

وقيل : ان سر العدول عن الجمع الى المفرد هو رعاية الفواصل وهو ختم الآيات بالميم المفتوحة المسبوقة بألف المد فلو قيل : « أئمة » لضاع الانسجام الصوتى الناتج عن مراعاة الفاصلة القرآنية .

---

(١٢) تفسير ابن كثير ٣/٣٣٠ .

ولا يمنع أن يكون سر العدول لهذا الغرض اللفظى ولغيره من الأغراض المعنوية التى ذكرناها حيث لا تعارض بينها •

ومن وضع الواحد موضع الجمع كلمة « ضدا » فى قوله تعالى : « كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا » أى أعوانا فى خصومتهم وتكذيبهم ، ووحد « ضدا » وان كان يراد منه الجمع لأنه خبر عن جمع ، لأحد وجهين اما لأنه مصدر فى الأصل ، والمصادر موحدة مذكرة ، واما لأنه مفرد فى معنى الجمع •

وسر ايثار المفرد على الجمع هو أن تتفق كلمة المعبودين ليكونوا ضد من عبدوهم من دون الله فيتبرأوا منهم ، فيكونون رغم كثرتهم كالشىء الواحد لفرط تضامهم وتعاونهم وتوافقهم ، وهم بهذا كاليد الواحدة على هؤلاء الكفار الذين عبدوهم من دون الله كما قال ﷺ فى الحديث النبوى الشريف « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » ومعنى تتكافأ دماؤهم أنهم متساوون فى القصاص والديات ، والكفؤ النظير والمساوى ، وهم يد على من سواهم أى هم مجتمعون على أعدائهم متعاونون على جميع أهل الأديان كأنه جعل أيديهم يدا واحدة وفعلهم واحدا •

فالرسول عليه الصلاة والسلام يقرر بهذا الحديث مبدأ المساواة بين جماعة المسلمين فكما أنهم متساوون فى الدماء وفى الذمة هم أيضا متساوون فى التعاون والنصرة والوقوف صفا واحدا ويدا واحدة فى وجه الباطل والطغيان كل واحد منهم فى إطار الجماعة كالاصبع فى اليد ، والجماعة كلها كاليد ذات الأصابع المتعاونة ، فكما لا تتخاذل الأصابع بعضها لا يجوز عليهم أن يتخاذلوا ، وعلى هذا يكون قوله عليه السلام : « وهم يد على من سواهم من قبيل التشبيه البليغ الذى حذفت فيه أداته » • والآية من الطباق المقدر لأن المعنى أنهم طلبوا الآ-

العزة فحصل لهم ضدها وهو الذل ليحصل التقابل بين معنى هذه الآية وبين ما قبلها وهي قوله تعالى : « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا » ووحد أيضا لما سبق تقريره في « ضدا » .

ومن وضع الواحد موضع الجمع قول الله تبارك وتعالى : « والملك على أرجائها .. » الحاقة : ١٧ فالمراد من الملك في الآية : الملائكة والدليل على أن الملك المراد منه الملائكة قوله تعالى : « على أرجائها »، والأرجاء في اللغة : النواحي يقال : رجا ورجوان والجمع : الأرجاء ، ويقال ذلك لحرف البئر والقبر وما أشبه ذلك ، لأن الواحد بما هو واحد لا يمكن أن يكون على أرجائها في وقت واحد .

يقول الرازي : لم يرد به ملكا واحدا بل أراد الجنس والجمع(١٣) .

ويبين الزمخشري السر في ايثار الافراد على الجمع في هذا السياق فيقول : فان قلت : ما الفرق بين قوله : والملك وبين أن يقال : والملائكة ؟ قلت : الملك أعم من الملائكة ألا ترى أن قولك : ما من ملك الا وهو شاهد أعم من قولك ما من ملائكة ؟ أهـ .

وقد اعترض أبو حيان على الزمخشري في افادة العموم من الافراد قائلا ولا يظهر أن الملك أعم من الملائكة ، لأن الفرد المحلى بالألف واللام قصاره أن يكون مرادا به الجمع المحلى بهما ..

وأما دعواه أنه أعم منه بقوله : ألا ترى .. الى آخره فليس دليلا على دعواه ، لأن من ملك نكرة مفردة في سياق النفي قد دخلت عليها « من » المخلصة للاستغراق ، فشملت كل ملك فاندرج تحتها الجمع

---

(١٣) مفاتيح الغيب ٦٩٣/١٥ .

لوجود الفرد فيه فانتفى كل فرد فرد بخلاف « من ملائكة » فان «من» دخلت على جمع منكر فعم فى كل جمع جمع من الملائكـة ولا يلزم من ذلك انتفاء كل فرد من الملائكة ، لو قلت : « ما فى الدار رجال » جـاز أن يكون فيها واحد لأن النفى انمـا انسحب على جمـع ولا يلزم من انتفاء الجمع انتفاء المفرد ، والملك فى الآية ليس فى سياق نفى دخلت عليه « من » وانما جىء مفردا(١٤) •

وعلى هذا لا يثبت للزمخشرى ما قاله فى سر ايثار المفـرد على الجمع ويبقى السر فى ما ذكرناه وهو ما ذهب اليه الرازى وهو ارادة الجنس كله بدليل قوله تعالى « على أرجائها » ، ولأن المفرد أخف من الجمع ، والمعنى أن السماء اذا انشقت عدلت الملائكة عن مواضع انشق الى جوانب السماء وفى قوله تعالى : « لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر » قرآ ابن كثير وأبو عمرو « جدار » بالافراد فمـا توجيهها ؟ •

قيل : أراد بالجدار السور الممتد والسور الواحد يعم الجميع من المقاتلة ويسترهم •

وقيل : أنه واحد فى معنى الجمع لدلالة السياق عليه ، وقيل : ان كل فرقة منهم وراء جدار لا أنهم كلهم وراء جـدار(١٥) ، والجمـع « جدر » باعتبار أن لكل فرقة جدار يسترها وتحتمى فيه فجمع لذلك •

ومن وضع الواحد موضع الجمع فى قوله تعالى : « وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام »(١٦) ففى قوله تعالى : « جسدا » وضـع

---

(١٤) البحر المحيط •

(١٥) الدر المصون ٢٩٨/٦ •

(١٦) الأنبياء : ٩ •

المفرد موضع الجمع ، لأن المراد أجساد ، فالكلام على حذف مضـــافة والتقدير وما جعلناهم ذوى اجساد غير آكلين الطعام ، وقيل : وحد الجسد لارادة الجنس كأنه قال : ذوى ضرب من الأجساد ، وهذا رد لقولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق(١٧) •

وقيل السر فى افراد الجسد هو ارادة : وما جعلنا كل واحد منهم جسدا والقراءات القرآنية أسهمت فى اثراء الدرس البلاغى لما يتضح من توجيهها من الكشف عن أسرار بلاغية ففى قوله تعالى : «ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق »(١٨) قرأ زيد بن على « بالســاق » مفردا اكتفاء بالمفرد عن الجمع لعدم اللبس كقول الشاعر :

● وأمـا جـلدها فصليب ●

وقـوله :

● كلوا فى بعض بطنكم تعفوا ●

ومن وقوع المفرد موقع الجمع لفظة « الدبر » فى قوله تعالى : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فالدبر هنا اسم جنس فى معنى الجمع أى أنه واقع موقع الجمع والسر البلاغى فى اختيار المفرد على الجمـع هنا هو وقوعه فاصلة لأن الفواصل فى السورة كلها على حـرف الراء غير مسبوق بمد •

قال تعالى : « عذابى ونذر » « مدكر » « ولقـد جاء آل فرعـون النذر » « عزيز مقتدر » ••• الخ •

---

(١٧) الكشاف ٢/٥٦٤ •

(١٨) ص : ٣٣ •

والمقام أيضا يقتضى افراد الدبر ، لأن القوم قد ادعوا القوة العامة بحيث يغلب كل واحد منهم محمدا ﷺ ، والله تعالى أراد أن يبين ضعفهم الظاهر الذى يعمهم جميعا بقوله : « ويولون الدبر » فيكون فى الافراد اشارة الى أنهم فى التولية كنفس واحدة فلا يتخلف أحده عن الجمع فى تولية الدبر ويثبت للزحف فهم كانوا فى التولية كدبر واحد .

أما الآيات التى ورد فيها لفظ الدبر مجموعا وهى كثيرة منها : قوله تعالى : « يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون » آل عمران : ١١١ .

وقوله تعالى : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار» الأحزاب : ١٥ .

وقوله تعالى : « فلا تولوهم الأدبار » الأنفال : ١٥ .

فكل واحد منهم ينبغى أن يثبت ولا يولى .

ومن وضع الواحد موضع الجمع قوله تعالى : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » حيث أخبر عن الجمع بالمفرد لأنه أى المفرد يجرى مجرى المصدر فهو على زنة فعل من مصادر فاعل أى لابس وتأويله : هن ملابسات لكم وأنتم ملابسون لهن .

ولعل فى ايثار المصدر دون اسم الفاعل سرا بلاغيا وهو الدلالة على شدة الاتصال النفسى بين الزوجين وشدة المخالطة بينهما اذ فى الاخبار بالمصدر عن الاسم مفردا أو مجموعا من المبالغة ما ليس فى غيره نحو رجل عدل ، ورجال عدل . ولذلك قالوا : كنى باللباس عن شدة المخالطة كقول النابغة الجعدى :

اذا ما الضجيع ثنى جيدها تثنت عليه فكانت لباسا

وفى قوله : « هن لباس لكم » تشبيه بليغ بحذف الوجه والأداة وعلى الرغم من ظهور ذلك فان صاحب التحرير والتنوير يرى فيها استعارة بجامع شدة الاتصال حينئذ ، أو لعله نظر الى كلمة « لباس » فقط فأجرى فيها الاستعارة لكن عبارته توهم ارادة الجملة كلها حيث قال : فقوله تعالى : « هن لباس لكم » استعارة بجامع شدة الاتصال، فلم يحدد اللفظ الذى تجرى فيه الاستعارة •

ثانيا ــ وضع الجمع موضع الواحد :

فى قوله تعالى : « كذبت قوم نوح المرسلين » وقع الجمع فى قوله : « المرسلين » موقع الواحد ، لأن قوم نوح كذبوه فقط ، ومن ثم قال الزمخشرى : المراد من المرسلين نوح عليه السلام على منوال قولك : فلان يركب الدواب ، ويلبس البرود ، وما له الا دابة وبرد (١٩)، ورد ابن المنير ما قاله الزمخشرى مبينا أنه لا حاجة الى تأويل الجمع بالواحد مع القطع بأن كل من كذب رسولا واحدا ، فقد كذب جميع الرسل ، لأنه ما من نبى الا ومستند صدقه المعجزة الدالة على الصدق، فقد كذبوا كل من استند صدقه الى دليل المعجزة »(٢٠) •

أى أنه لما كانت المعجزة مستند صدق كل الرسل ، وهذا مشترك بين الجميع فمن كذب واحدا فقد كذب الجميع لاشتراكهم جميعا فى دلالة معجزاتهم على الصدق •

أو قد يكون المعنى أنكروا أن يكون الله قد أرسل رسلا أصلا ومن بينهم نوح عليه السلام فيكونون مكذبين لكل الرسل ، وعلى هذا يكون

---

(١٩) الكشاف ٣/١٧٠ •

(٢٠) حاشية ابن المنير : الموضع السابق

الجمع على ظاهره فى الدلالة على تكذيب المرسلين • وقيل : كذبوا نوحا فى النبوة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده •

وقيل ذكر الجنس والمراد نوح عليه السلام »(٢١) وقد سبق في الفرقان أيضا تكذيب قوم نوح للرسل فى قوله تعالى : «وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية »(٢٢) •

وقد ذكر الزمخشرى عند تفسير هذه الآية أن الجمع قد يكون على حقيقته فقال : كأنهم كذبوا نوحا ومن قبله من الرسل صريحا ، أو كأن تكذيبهم لواحد منهم تكذيب للجميع ، وهذا المعنى هو الأنسب للمقام : لأن الله لم يرسل لهم من الرسل سوى نوح عليه السلام ، ولكن لما جاءهم بالعقيدة الواحدة التى أرسل بها الرسل جميعا وكذبوه فيكونوا قد كذبوا الرسل جميعا ، وهذا هو سر وضع الجمع موضع المفرد ، ولو فرض أن الله تعالى بعث اليهم كل رسول ، فانهم كانوا يكذبون •

ومن وضع الجمع موضع الواحد قوله تعالى : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلى في المحراب » فقد روي أن زكريا — عليه السلام — كان يقرأ فناداه جبريل ، فقيل : الجمع هنا مجاز عن الواحد للتعظيم أو يكون هذا من اسناد فعل البعض للكل ، وقيل الجمع فيه مثله فى قولك : « فلان يركب الخيل » أى جنس الخيل وانما يركب واحدا من أفراده ، والمراد بالخيل : الكثير ولا يستعمل الخيل والابل ونحوهما الا فى الكثير فانها من أسماء الجموع ، وكما يقال : فلان يأكل الأطعمة الطيبة ، ويلبس الثياب النفيسة ، أى يأكل من هذا الجنس ويلبس من

---

(٢١) تفسير القرطبى ٤٨٣٥/٧ •

(٢٢) الفرقان : ٣٧ •

هذا الجنس مع أن المعلوم أنه لا يأكل جميع الأطعمة ، ولا يلبس جميع الثياب ، وكما يقال : فلان يركب فى السفن أى فى هذا الجنس ، فانه لا يركب الا فى سفينة واحدة .

ونقل الفخر الرازى عن المفضل بن سلمة قوله : ((اذا كان القائل رئيسا جاز الاخبار عنه بالجمع لاجتماع أصحابه معه ، فلما كان جبريل رئيس الملائكة ، وقلما يبعث الا ومعه جمع صح ذلك(٢٣) .

ويرى الطاهر ابن عاشور أن اسناد النداء الى الملائكة من قبيل اسناد فعل الواحد الى قبيلته ، كقولهم : قتلت بكر كليبا وانما الذى قتله واحد من أفراد القبيلة(٢٤) .

وعلى أى من هذه المعانى التى أشرنا اليها فان اسناد النداء الى الملائكة بالجمع فيه من التشريف والتعظيم ما ليس فى المفرد كما يقول الواحد اذا أراد أن يفخم نفسه فعلنا كذا ، أو أمرنا بكذا ..

ومنه قوله تعالى : ((الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)) فالمراد من ((الناس)) الأولى هو نعيم بن مسعود ، والمراد من ((الناس)) الثانية هو أبو سفيان ، وانما جاز اطلاق لفظ الناس على الواحد لأنه اذا قال واحد قولا وله أتباع يقولون مثل قوله، حسن اضافة ذلك الفعل الى الكل(٢٥) لأن قول الأتباع لا يخرج عن قول رئيسهم أو سيدهم ، وكان كل من أبى سفيان ونعيم بن مسعود مطاعين فى قومهما لما لهما من منزلة عظيمة فى نفوس القوم .

---

(٢٣) التفسير الكبير ١٩٥/٧ .

(٢٤) التحرير والتنوير ٢٣٩/٣ .

ومن وضع الجمع موضع المفرد لفظة « الناس » أيضا فى قوله تعالى : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » فالمراد من الناس هو النبى ﷺ ، ينكر عليهم المولى عز وجل حسدهم لرسول الله ﷺ والانكار ليس مفيدا لنفى الحسد لأنه واقع وانما كان ينبغى ألا يقع منهم فهو مفيد للتوبيخ ، ولاشك أن السر فى وضع الجمع هنا موضع الواحد هو ارادة التعظيم أو ليكون الحكم عاما فان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب • فالانكار هنا موجه الى كل حاسد ينظر الى من آتاهم الله من فضله نظرة تحمل دفائن الحقد بتمنى زوال النعمة عن المنعم عليهم •

ومنه قوله تعالى : « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله » يعنى المسجد الحرام — لقوله تعالى : « وعمارة المسجد الحرام » كما أن فيه توطئة لقوله : « يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربون المسجد الحرام بعد عامهم هذا» اذ هم ليسوا بأهل لأن يعمروا المسجد الحرام وغيره من مساجد الله لظهور كفرهم المتمثل فى أقوالهم وأفعالهم مثل قولهم فى التلبية «لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك » ومثل سجودهم للأصنام وطوافهم بها ، ووضعهم اياها فى جوف الكعبة وحولها وعلى سطحها ، فهذه الأقوال والأفعال شاهدة على أنفسهم بالكفر •

وقرىء مساجد الله بالجمع وقرأ ابن كثير ويعقوب وأبو عمرو « مسجد الله » بالافراد ، وهذه القراءة تؤيد المراد من الجمع وهو الأفراد أى المسجد الحرام فى قراءة الباقين بالجمع ، وذلك لتوافق القراءتين وتطابقهما •

---

(٢٥) البرهان ٣/٨ •

ويقول الزمخشري وأما القراءة بالجمع ففيها وجهان :

أحدهما : أن يراد المسجد الحرام ، وانما قيل « مساجد » لأنه قبلة المساجد كلها وامامها ، فعامره كعامر جميع المساجد ، ولأن كل بقعة منه مسجد .

والثاني : أن يراد جنس المساجد ، واذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها دخل تحت ذلك أن لا يعمروا المسجد الحرام الذي هو صدر الجنس ومقدمته .

وهو آكد ، لأن طريقته طريقة الكناية ، كما لو قلت : فلان لا يقرأ كتب الله كنت أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك »(٣٦) .

ونقول : ان قراءة الجمع على الوجه الأول وهو أن يراد من « مساجد الله » : المسجد الحرام فيها مبالغة وتنويه وتعظيم لشأن المسجد الحرام فهو أعظم مساجد الله منزلة وأعلاها قدرا وهو أول المساجد الثلاثة التي تشد اليها الرحال ، والصلاة فيه بمائة ألف صلاة في الأجر والثواب فعبر عن هذا الشيء المعنوي الذي يتسم بالعظمة والروعة بالجمع العددي ، وكأن المسجد الحرام مساجد متعددة ، ليس مسجدا واحدا لقيمة شأنه ورفعة مكانه .

ومن وضع الجمع موضع الواحد أيضا ما ذكره المفسرون في تفسير قوله تعالى : « الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس » فقد آثر النظم الكريم طريق الجمع في رسل الملائكة وعدل به عن الافراد لأن المشهور أن رسول الوحي واحد وهو جبريل عليه السلام لقصد تعظيمه حتى لكأنه عليه السلام بامتيازه بتلك الخصيصة صار أهلا

---

(٣٦) الكشاف ٢/١٧٨ .

لأن يوصف بما يوصف به الجماعة ، أو لأن ما يقوم به من مهام الرسالة يعجز عن حملها جمع كثير من الناس •

وقد ذهب العلامة الألوسى الى أن الجمع فى رسل الملائكة على ظاهره اذ المراد الله يصطفى من الملائكة رسلا الى سائرهم فى تبليغ ما كلفوا به من الطاعات ، ومن الناس رسلا الى سائرهم فى تبليغ ما كلفهم به أيضا ، وعلى أية حال فأنا لا أستطيع ترجيح رأى على آخر فى المراد من جمع رسل الملائكة لأن هذا أمر متصل بعلم الغيب الذى استأثر الله بعلمه •

ولا يجوز لنا أن نمعن فى التأويل فى هذا الجانب الغيبى الذى يعلمه الله وحده وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالاته ، لا سيما وقد ورد هذا الجمع فى جانب الملائكة فى آيات كثيرة •

منها قوله تعالى : « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا » ، وقوله تعالى : « حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » وقوله تعالى : « حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم » ، وقوله تعالى : « ان رسلنا يكتبون ما تمكرون » ، وقوله : « ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما » وقوله تعالى : « ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم ، وضاق بهم ذرعا » وقوله تعالى : « ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى » وقوله : « بلى ورسلنا لديهم يكتبون » •

هذه الآيات الكثيرة تجعلنا أكثر ايمانا بعدم الخوض فى تأويل رسل الملائكة بالمفرد وهو جبريل فمن المعلوم أن جبريل هو أمين الوحى وهو المسلم عليه لكن هذا لا يمنع أن يكون له أعوان من رسل الملائكة ، كما أن عزرائيل هو ملك الموت وله أعوان من رسل الملائكة بنص القرآن ، وملك الحسنات وملك السيئات لهما أعوان من

الرسل ، وقد ورد ذلك صريحا بنص القرآن ، وكذلك ملك العذاب وخزنة جهنم .

ومن وقوع الجمع موقع الواحد قوله تعالى :

« يا أيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » ، ولعل السر البلاغى فى توجيه الخطاب الى النبى ﷺ بلفظ الجمع « طلقتم » مع أن الحكم خاص بالمسلمين لا بشخصه — ﷺ — هو زيادة فى الاهتمام واشعارا بخطورة الأمر المتحدث عنه فهو أمر ذو بال ينادى الله نبيه بشخصه ليلقى اليه فيه بأمره على هذا النسق الذى ينتقل فيه الخطاب من المفرد الى الجمع ، وفيه أيضا ايحاء للمؤمنين بأنهم يجب عليهم أن يأتسوا برسول الله ﷺ فى أحكام الطلاق لأن ما يقوله ﷺ انما هو وحى يوحى فهو لا ينطق عن الهوى فينفذوا ما جاء عنه ﷺ قولا وفعلا وتقريرا .

وقد هديت الى ذلك بما ذكره المرحوم الشهيد سيد قطب عند تفسير قوله تعالى فى تفسير السورة « قد أنزل الله اليكم ذكرا رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات .. » الآية : ١١ يقول : يجسم المولى عز وجل هذا الذكر ويمزجه بشخص الرسول — ﷺ — فيجعل شخصه الكريم هو الذكر أو بدلا منه فى العبارة « رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات » وهنا لفتة مبدعة عميقة صادقة ذات دلائل منوعة .

أن هذا الذكر الذى جاء من عند الله مر اليهم من خلال شخصية الرسول الصادق حتى لكأن الذكر نفذ اليهم مباشرة بذاته ، لم تحجب شخصية الرسول شيئا من حقيقته ، والوجه الثانى لايحاء النص هو أن شخصية الرسول — ﷺ — قد استحالت ذكرا فهى صورة مجسمة لهذا الذكر صنعت به فصارت هو ، وهو ترجمة حية لحقيقة القرآن ، وكذلك كان رسول الله ﷺ .

وهكذا وصفته عائشة – رضى الله عنها – وهى تقول : « كان خلقه القرآن » ، وهكذا كان القرآن فى خاطره فى مواجهة الحياة ، وكان هو القرآن يواجه الحياة ، كان قرآنا يمشى على الأرض .

ومن وضع الجمع موضع الواحد وصف المفرد بالجمع قوله تعالى: « فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا » فقد وصف الطريق وهو مفرد بالجمع « يبسا » وهو وصف به لما يؤول اليه من اليبس ، لأنه حين الأمر بالضرب لم يكن يابسا وانما مرت عليه ريح الصبا فجففته .

وقيل : ان « يبسا » فى الأصل مصدر وصف به مبالغة أو على حذف مضاف أى ذا يبس ، أو أنه جمع يابس وهذا هو محل الشاهد هنا كخادم وخدم وصف بها الواحد مبالغة كقوله : ومعى جياعا .

فى قول الشاعر :

كأن قتود رحلى حين ضمت حوالب غرزا ومعى جياعا

جعل الطريق لفرط يبسها كأشياء يابسة ، والمعنى : ليس فيها ماء ولا طين ولا ندى أو أنه قدر كل جزء من أجزاء الطريق طريقا يابسا فكانت كذلك لأنها كانت اثنتى عشر طريقا لكل سبط طريق والأرجح فى هذا السياق هو وصف المفرد بالجمع هنا لقصد المبالغة . حتى يتأكد المعنى فى ذهن المخاطبين لأن وصف الطريق فى البحر باليبس من دلالة القدرة الالهية وآية من آيات الاعجاز الكونى .

ومنه قول الشاعر « ومعى جياعا » جعله لفرط جوعه كجماعة جياع وفى قوله تعالى : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم »(٢٧) قيل : ان المراد بالملائكة ملك الموت فقط وهو من اطلاق الجمع على الواحد ، وهذا الرأى ضعيف لأنه لا مانع من نسبة التوفى الى الله والى ملك الموت والى أعوانه .

---

(٢٧) سورة النساء الآية ٩٧ .

والوجه في ذلك أن الله تعالى هو الآمر بل الفاعل الحقيقي • والأعوان هم المزاولون لاخراج الروح من نحو العروق والشرايين والعصب • والملك هو القابض المباشر لأخذها بعد تهيئتها فنسبتها الى الله في قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتهـا » ونسبتها الى ملك المـوت في قوله تعـالى : « قل يتوفاكم ملك الموت ••• »(٢٨) ونسبتها الى الأعوان وهم رسل الملائكة في قوله تعـالى : « حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون »(٢٩) وعلى هذا يكون الجمع في الآية على حقيقته •

وفي قوله تعالى : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا ••• الآية »(٣٠) المـأمور في هذه الآية هو نبينا محمد ﷺ ، فكيف أتى بلفظ الجمع في « آمنا » و « علينا » والجواب من وجهين أحدهما أن يكون هو وأمتـه مأمورين بذلك وانما حذف معطوفه لفهم المعنى والتقدير قل يا محمـد أنت وأمتك : آمنا بالله •

وثانيهما : أن المـأمور هو محمد ﷺ وحده وانمـا خوطب بلفظ الجمع تعظيما له قال الزمخشري : ويجوز أن يؤمر بأن يتكلم عن نفسه كما تتكلم الملوك اجلالا من الله لقدر نبيه(٣١) •

ومن وضع الجمع الواحد ما نجده في توجه الخطاب بلفظ الجمـع الى أبي بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ لمـا حرم مسطحا رفده حين

---

(٢٨) الآية ١١ من سورة السجدة •
(٢٩) الآية ٦١ من سورة الانعام •
(٣٠) الآية ٨٤ من سـورة آل عمران •
(٣١) الكشـاف ٤٤٢/١ •

تكلم في حديث الافك في قوله تعالى : « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى ... الآية(٣٢). وفي الآية مدح وثناء لأبى بكر من الله عز وجل حيث وصفه بأنه صاحب الفضل على الاطلاق من غير تقييد لذلك بشخص دون شخص وقد وصفه الله بصيغة التفضيل في آية أخرى في قوله تعالى : « وسيجنبها الأتقى » .

وهذا يدل على أن المراد من الفضل في الآية هو الفضل في الدين ويدل عليه أيضا عطف السعة عليه اذ المراد السعة في الرزق ، والا لكان تكرارا . فالمولى عز وجل خاطب أبا بكر بلفظ الجمع دلالة على علو شأنه .

وفي هذا غاية التشريف والمدح لأنه صادر ممن له صفات الجلال والكمال ، وقد جمع الله عز وجل لمسطح ثلاث صفات بلفظ الجمع أيضا وهي أنه كان من قرابة أبى بكر فهو ابن خالته ، وكان مسكينا ، وكان مهاجرا ، وهذه الصفات الثلاث التى اجتمعت في مسطح تقتضى من ابى بكر أن يعفو عنه هذه الزلة ولكن أبا بكر وجد شدتها على نفسه لأن الظلم من ذى القربى أشد قال الشاعر :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

ومن التعبير عن المفرد بلفظ الجمع ما جاء في قصة بلقيس فيما حكاه القرآن عنها قوله تعالى : « وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » فقد عبر عن الواحد بالجمع لأنه كان رسولا واحدا بدلالة قوله : « أرجع اليهم »(٣٣) وفيه نظر لأن الخطاب في قوله :

---

(٣٢) سورة النور الآية ٢٢ .

(٣٣) انظر : البرهان للزركشي ٢/٢٣٧ .

« ارجع » قد يكون لرئيسهم فإن العادة جارية ــ لا سيما من الملوك ألا يرسلوا واحدا بدليل قراءة ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ « ارجعوا اليهم » أراد الرسول ومن معه .

وقد يكون الموجب للجمع ووضعه موضع الواحد هو مراعاة التناسق اللفظى فى القرآن بتوافق فواصله وذلك اذا كانت الفاصلة أو الحرف الأخير فيها مسبوقا بحرف مد مفتوح كما فى قوله تعالى : « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال »(٣٤) فالمراد خلة بدليل الآية الأخرى وهى قوله تعالى : « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة »(٣٥) .

ومن وضع الجمع موضع الواحد ما نجده فى جمع الرسل ، والمراد به الرسول ﷺ فى قوله تعالى : « نجب دعوتك ونتبع الرسل » جمع الرسل هنا اما باعتبار اتفاق الجميع على التوحيد ، وكون عصيانهم للرسول ﷺ عصيانا لهم جميعا عليهم السلام ، واما باعتبار أن المحكى كلام ظالمى الأمم جميعا ، والمقصود بيان وعد كل أمة بالتوحيد واتباع رسولها على ما قيل(٣٦) .

---

(٣٤) سورة ابراهيم الآية ٣١ .

(٣٥) سورة البقرة الآية ٢٥٤ .

(٣٦) روح المعانى ٢٤٨/١٣ .

الفصل الخامس

الدلالة البلاغية للإفراد

قد يؤثر النظم القرآني المفرد على الجمع لسر بلاغي يقتضيه المقام كما فى قوله تعالى : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين »(١) قال : « بشىء » ولم يقل بأشياء بيانا لتخفيفه ورحمته وأن ابتلاءه يكون بشىء أى بشىء قليل وقد استفيدت القلة من تنكير الكلمة ومن مادتها فان لفظة شىء قد تطلق ويراد منها أدنى شىء •

يقول الرازى : « انما قال سبحانه « بشىء » على الوحدان ، ولم يقل بأشياء على الجمع لوجهين :

الأول : لئلا يوهم بأشياء من كل واحد فيدل على ضروب الخوف والتقدير بشىء من كذا وشىء من كذا •

الثانى : معناه بشىء قليل من هذه الأشياء(٢) •

وفى قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات »(٣) •

يقول الرازى(٤) : لم قال « أم الكتاب » ولم يقل أمهات الكتاب؟

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥٥ •
(٢) التفسير الكبير ٥٤٣/٢ •
(٣) سورة آل عمران الآية ٧ •
(٤) المرجع السابق •

الجواب : أن مجموع المحكمات فى تقدير شيء واحد ، ومجموع المتشابهات فى تقدير شيء آخر وأحدهما أم الآخر ، ونظيره قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » ولم يقل : آيتين ، وانما قال ذلك على معنى أن مجموعهما آية واحدة فكذلك هنا فقد عبر القرآن بالأصل ، لأن أم كل شيء : أصله وعماده .

هذا بالاضافة الى أن اختيار المفرد له دلالته اللفظية فى نسق الكلام وجرسه ، ولو قال « أمهات » لكانت الكلمة قلقة فى مكانها ، وكانت نابية وثقيلة على السمع وأيضا ففى التعبير بالمفرد دلالة بينة بأن كل آية منها تعد أما ولو قال : أمهات لكان الكلام عن مجموعها فقط وأنها كلها أم ولا يصح أن تكون واحدة أما وقيل : المراد صنف الآيات المحكمات يتنزل من الكتاب منزلة أمه أى أصله ومرجعه الذى يرجع اليه فى فهم الكتاب ومقاصده ويعلم منه أن كل آية من المحكمات أم الكتاب فى ما تتضمنه من المعنى وهذا يشعر بعزة ورفعة كل آية وأنها أم فى حد ذاتها ، وتلك طريقة من طرق بلاغة القرآن وسنة من سنن العرب فى كلامها(٥) .

والقرآن الكريم ضرب مثلا لرجلين جعل لأحدهما جنتين من أعناب ثم بعد ذلك عدل النظم القرآنى عن التثنية الى الافراد فى قوله تعالى : « ودخل جنته وهو ظالم لنفسه »(٦) فما سر الافراد بعد التثنية ؟

قيل : أفرد لأن الدخول لا يمكن أن يكون فى الجنتين فى وقته واحد ، وانما يكون فى واحدة واحدة فلعله دخل واحدة منها ثم قال هذا القول قبل أن يدخل الثانية ، وعلى هذا يكون الافراد على حقيقته .

---

(٥) ينظر المزهر فى علوم اللغة ١/٣٣٣ .

(٦) الكهف ٣٥ .

وقد يقال : ان المراد من الجنة كل ما هو جنة له يتمتع بها بناء على أن الاضافة للاستغراق والعموم فتفيد ما أفادته التثنية مع زيادة وهي الاشارة الى أنه لا جنة له غير ذلك ، ولا حظ له في الجنة التي وعد المتقون .

والى هذا ذهب الزمخشري وهو معنى لطيف دق تصوره على أبي حيان فتعقب الزمخشري بقوله : ولا يتصور ما قال ، لأن قوله « ودخل جنته » اخبار من الله تعالى بأن هذا الكافر دخل جنته فلابد أن قصد في الاخبار أنه دخل احدى جنتيه اذ لا يمكن أن يدخلهما معا في وقت واحد ، وقد رد على أبي حيان السمين الحلبي منتصرا للزمخشري فقال : « ومن ادعى دخولهما في وقت واحد حتى يلزمه هذا المستحيل في البداية ، وقال أبو البقاء « انما أفرد لأنهما جميعا ملكه فصارا كالشيء الواحد ، وقد اكتفى به عن التثنية للعلم بالحال كما اكتفى بالواحد عن الجمع في قول الهذلي :

فالعين بعدهم فان حداقها سملت بشوك فهي عور تدمع

فالضمير في « سملت » مفرد يعود على حداقها وهي جمع تكسير . وقد يرد عليه بأن جمع التكسير يجري مجرى المؤنثة في عود الضمير عليه ، وبهذا لا ينهض البيت شاهدا لأبي البقاء في ما ذهب اليه .

وقيل : أفرد لاتصال احداهما بالأخرى فكانتا في حكم المفرد .

والافراد في قوله تعالى : « وعرضوا على ربك صفا » أي مصطفين له موقع عظيم ، لان الافراد وان كان في معنى الجمع أي صفوفا ، و «صفا» مصدر وقد تكرر القول بأنه يقع موقع الجمع لدلالته عليه ، الا أن وراء الافراد والعدول عن الجمع سرا بلاغيا دقيقا وهو

الجواب : أن مجموع المحكمات فى تقدير شىء واحد ، ومجموع المتشابهات فى تقدير شىء آخر وأحدهما أم الآخر ، ونظيره قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » ولم يقل : آيتين ، وانما قال ذلك على معنى أن مجموعهما آية واحدة فكذلك هنا فقد عبر القرآن بالأصل ، لأن أم كل شىء : أصله وعماده .

هذا بالاضافة الى أن اختيار المفرد له دلالته اللفظية فى نسق الكلام وجرسه ، ولو قال « أمهات » لكانت الكلمة قلقة فى مكانها ، وكانت نابية وثقيلة على السمع وأيضا ففى التعبير بالمفرد دلالة بينة بأن كل آية منها تعد أما ولو قال : أمهات لكان الكلام عن مجموعها فقط وأنها كلها أم ولا يصح أن تكون واحدة أما وقيل : المراد صنف الآيات المحكمات يتنزل من الكتاب منزلة أمه أى أصله ومرجعه الذى يرجع اليه فى فهم الكتاب ومقاصده ويعلم منه أن كل آية من المحكمات أم الكتاب فى ما تتضمنه من المعنى وهذا يشعر بعزة ورفعة كل آية وأنها أم فى حد ذاتها ، وتلك طريقة من طرق بلاغة القرآن وسنة من سنن العرب فى كلامها(٥) .

والقرآن الكريم ضرب مثلا لرجلين جعل لأحدهما جنتين من أعناب ثم بعد ذلك عدل النظم القرآنى عن التثنية الى الافراد فى قوله تعالى : « ودخل جنته وهو ظالم لنفسه »(٦) فما سر الافراد بعد التثنية ؟

قيل : أفرد لأن الدخول لا يمكن أن يكون فى الجنتين فى وقت واحد ، وانما يكون فى واحدة واحدة فلعله دخل واحدة منها ثم قال هذا القول قبل أن يدخل الثانية ، وعلى هذا يكون الافراد على حقيقته .

---

(٥) ينظر المزهر فى علوم اللغة ١/٣٣٣ .

(٦) الكهف ٣٥ .

انى وهن العظم منى » فالمقصود فى هذا المقام : اظهار الضعف فى البدن وابداء تساقط القوى ، ودل على هذا المعنى بوهن جنس العظم أى أن قوله تعالى : « وهن العظم منى » كناية عن وهن جميع البدن وضعفه ، لأن البدن كالبيت ، والعظم كالعمود للبيت ، واذا وقع الخلل فى العمود تداعى البيت أى تهدم وسقط فهى كناية مرتبة على التشبيه أو لأن العظم أصلب ما فى البدن ، فاذا وهن كان غيره من الاعضاء الى الوهن أولى فهى كناية بلا تشبيه .

ووحد العظم ، لأن القصد الى وهن جنس العظم الذى هو عمود البدن وأصلب ما فيه ليكون كناية عن وهن جميع الأعضاء ، ولو جمعه لكان القصد الى عدم وهن بعض العظام فاللام فى العظم للجنس والغرض منه استغراق افراد هذا الجنس بوهن العظم ويقاس عليه أو نظيره قوله تعالى : « ولا يفلح الساحر حيث أتى » فانه لو قيل : السحرة لأوهم أن الجمعية معتبرة فى الحكم بعدم الفلاح .

والحاصل : أن القصد الى ثبوت الوهن فى جنس العظم الذى هو عمود البدن وبه قوامه ، ولو قيل العظام لكان القصد الى أن الوهن فى افراد العظم ، وحينئذ ربما يتوهم أن الجمعية معتبرة فى ثبوت هذا الحكم فلا يكون الوهن ثابتا فى بعض العظام ، وهو خلاف المقصود .

وقد يعود الضمير مفردا مع تقدم اثنين كما فى قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله »(٨) أفرد الضمير فى « ينفقونها » مع تقدم اثنين وهما : « الذهب والفضة » نظرا الى عوده الى الفضة لقربها ولأنها أكثر من الذهب .

---

(٨) سورة التوبة الآية / ٣٤ .

والمعنى : ولا ينفقونها والذهب كما أن معنى قوله :

● وانى وقيــار بها لغريب ●

أى وقيار كذلك •

وقيل : الضمير عاد الى المعنى دون اللفظ ، لأن المكنــوز دراهم ودنانير ، وانما خص الذهب والفضة بالذكر لأنهما قانون التمول وأثمان الأشياء فهو كقوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا »(٩) •

وفى قوله تعالى : « واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها »(١٠) تقدم اثنان وهما اللهو والتجارة وعاد الضمير مفردا على واحد منهما، وفى تأويله أقــوال •

أحدها أن فى الكلام حذفا تقــديره : واذا رأوا تجــارة انفضوا اليها أو لهوا انفضوا اليه ، فحذف الثانى لدلالة الأول عليه •

وقد عاد الضمير على التجارة لأنها أهم عندهم من اللهــو ولأن الحدث الذى نزلت الآية بسببه هو مجىء عير دحية من الشام •

ثانيها : ليس فى الكلام حذف ، وانما هو من باب الاكتفــاء أى اكتفى بضمير التجارة عن ضمير اللهو •

ثالثها : قيل : هو من باب التغليب أى غلب ضــمير التجــارة على ضمير اللهو حيث عاد الضمير مؤنثا لأن التجارة كانت الداعى الأقــوى لانفضاضهم •

وقد ترد اللفظة مفردة فى ســياق بينما نجدها هى بذاتهــا فى سياق آخر ترد مجموعة فما السر ـ اذن ـ فى اختلاف اللفظة بالافراد

---

(٩) انظر الكشاف ١٨٧/٢ •

(١٠) سورة الجمعة الآية الأخيرة •

والجمع قال تعالى : « سيهزم الجمع ويولون الدبر »(١١) وقال تعالى فى موضع آخر « يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون »(١٢) وقوله تعالى : « فلا تولوهم الأدبار » ، وقوله تعالى : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار »(١٣) فكيف يصح الافراد ؟ وما الفرق بين المواضع المختلفة ؟

قيل : سر افراد الدبر هنا الاشارة الى أنهم فى التولية كنفس واحدة فلا يتخلف أحد عن الجمع ولا يثبت أحد للزحف ، فهم كانوا فى التولية كدبر واحد ، وأما فى قوله « فلا تولوهم الأدبار » أى كل واحد يوجد به ينبغى أن يثبت ولا يولى دبره فليس المنهى اذن فى هذه الآيات توليتهم بأجمعهم بل المنهى أن يولى واحد منهم دبره فكل أحد منهى عن تولية دبره ، فجعل كل واحد برأسه فى الخطاب ثم جمع الفعل بقوله : « فلا تولوهم » ولا يتم الا بقوله « الأدبار » وكذلك فى قوله تعالى : « ولقد كانوا عاهدوا الله » أى كل واحد قال : أنا أثبت ولا أولى دبرى(١٤) .

وما قاله الرازى يشير الى ما قرره علماء اللغة من مقابلة الجمع بالجمع بمعنى أن المقام يقتضى أن يثبت كل فرد فى ميدان القتال ولا يولى دبره فكل فرد منهى على وجه الاستقلال عن تولية دبره وعلى مثال توحيد « الدبر » فى آية القمر توحيد كلمة « صفا » فى سورة الصف فى قوله تعالى : « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله

---

(١١) سورة القمر الآية ٤٥ .

(١٢) سورة آل عمران الآية ١١١ .

(١٣) سورة الاحزاب الآية ١٥ .

(١٤) تفسير الفخر الرازى ١٢٠/١٥ .

صفا كأنهم بنيان مرصوص » لم يقل صفوفا اشارة الى أن الجماعة المسلمة ينبغى أن تكون على قلب رجل واحد فى الجهاد فى سبيل الله غايتهم واحدة وهدفهم واحد وهو اعلاء كلمة الله ونصرة دينه ، فلا حزبية ولا تعددية ولا طبقية فهم فى ميدان الجهاد وان كانوا صفوفا متراصة الا أنهم بمثابة الصف الواحد ٠

وهذا يشير الى وحدة العقيدة ووحدة الطريق المستقيم وهو صراط الله الذى اليه وحده يكون المصير فهم يقاتلون فى سبيل الله لا فى سبيل ذواتهم أو عصبيتهم من أى لون عصبية الجنس وعصبية الأرض ، وعصبية العشيرة ٠

ويشير الى مدى تعاونهم وتضامنهم وتماسكهم كالبنيان الذى تتعاون لبناته فى اقامة القصور والصروح وكل لبنة فيه تؤدى دورها تأخذ بحجز الأخرى وتشد من أزرها فى نظام بديع ونسق متكامل لا تشذ فيه لبنة عن الأخرى ؛ فالبنيان كله ينهار اذا تخلت منه لبنة عن مكانها أو عن أداء دورها ، فالمجتمع الاسلامى يجب أن يكون على هذا الترابط والتماسك والمساواة كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفيها٠

وفى قوله تعالى : « أم يقولون نحن جميع منتصر »(١٥) فقد أخبر عن الجمع بالمفرد مما يفقد التطابق بين المبتدأ والخبر ، فما سر هذه المخالفة ؟ قال الرازى : أفرد « منتصر » لمجاورته جميع لأنه وان كان فى معنى الجمع الا أن لفظه مفرد ويحتمل أن يقال : معنى « نحن جميع منتصر » أن جميعا بمعنى كل واحد ، كأنه قال : نحن كل واحد منا منتصر كما تقول : هم جميعهم أقوياء بمعنى أن كل واحد منهم

---

(١٥) سورة القمر آية ٤٤ ٠

قوى وهم كلهم علماء أى كل واحد عالم فترك الجمع واختار الافـراد لعود الخبر الى كل واحد ، فانهم كانوا يقولون : كل واحد منـا يغلب محمدا ـ ﷺ ـ .

كما قال أبى بن خلف الجمحى ، وهذا فيه معنى لطيف ، وهو أنهم ادعوا أن كل واحد غالب ، ولذلك كان رد الله عليهم مقابلا لقولهم وهو أنهم يولون الدبر جميعا لا يتخلف منهم أحد عن التوليـة فهم كنفس واحدة كما قررناه فى الآية السابقة ويضاف الى هذا السر المعنوى سر آخر لفظى حيث عدل النظم القرآنى عن « منتصرون » الى « منتصر » اتباعا لرؤوس الآى ليتسق النظم فى الفاصلة القرآنية .

وقد يؤتى بالمفرد دون الجمع للنص على حكم شرعى لا يتأتى من الجمع كما فى قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » فسر افراد المسكين هو الدلالة المطابقية على حكم شرعى وهو أن من تشتد به مشقة الصوم وهم الشيخ الهـرم والمرأة المرضع والحـامل يرخص لهم فى الافطار والفدية ، وتحديد الفدية بالنص عليها وهـو أن عليه اطعام مسكين واحد عن كل يوم يفطر فيه ، ولا يفهم ذلك من الجمع فالمراد بالافراد هنا هو افراد العموم .

وطعام المراد به اطعام فهو مصدر ويضعف أن يراد به المفعول ، لأنه أضافه الى المسكين وليس الطعام للمسكين قبل تمليكه اياه ، فلو حمل على ذلك لكان مجازا ، لأنه يصير تقديره فعليه اخـراج طعـام يصير للمساكين فهو من باب تسمية الشىء بما يؤول اليه ، وهـو وان كان جـائزا الا أنه مجـاز ، والحقيقـة أولى منه(١٦) وأما قـراءة « مساكين » بالجمع فعلى اعتبار جمع الذين يطيقونه فهو من مقـابلة الجمع بالجمع مثل ركب الناس دوابهم .

---

(١٦) املاء ما من به الرحمن للعكبرى ١/٨١ .

الفصل السادس

الدلالة البلاغية للجميع

فى قوله تعالى : « وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود » فقد جمعت هذه الألفاظ لما فى الجمع من دلالة العموم ، لأن الجمع كما يقول صاحب الطراز أدل على العموم من المفرد(١) ، وما يقوله صاحب الطراز مخالف لما قاله الزمخشرى عند تفسير قوله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » حيث قال : وقرأ ابن عباس « وكتابه » يريد القرآن أو الجنس وعنه « الكتاب أكثر من الكتب » ، فان قلت كيف يكون الواحد أكثر من جمع ؟ قلت : لأنه اذا أريد بالواحد الجنس ، والجنسية قائمة فى وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شيء .

فأما الجمع فلا يدخل تحته الا ما فيه الجنسية من الجموع(٢) وما قاله صاحب الكشاف فيه نظر ، لأن معنى كلامه أن العموم باعتبار الأفراد ، وافراد الكتاب آحاد ، وافراد الجموع جموع ، ولاشك أن الآحاد أكثر من الجموع ، ويرد عليه بأن عموم الجمع ليس باعتبار الجموع ، فان العام لفظ يتناول مسميات باعتبار أمر اشتركت فيه كما أن المسلمين عام لأنه يتناول زيدا لأنه مسلم ، وعمرا لأنه مسلم وبكرا لأنه كذلك ، والأفراد التى يتناولها الجمع ليست أفرادا للجمع بل هى

---

(١) الطراز .

(٢) الكشاف ٤٠٧/١ .

أفراد للأمر المشترك فلا يفهم من المسلمين الا آحاد المسلم لا جموع المسلمين ، والا لكان الخطاب لا يتناول الآحاد وليس كذلك(٣) .

ويؤيد هذا ما قاله الطاهر بن عاشور : والحق أن المفرد والجمع سواء فى ارادة الجنس ألا تراهم يقولون : إن الجمع فى مدخول أل الجنسية صورى ، ولذلك يقال : اذا دخلت أل الجنسية على جمع أبطلت منه معنى الجمعية ، وإن صح ما نقل عن ابن عباس فتأويله أنه أكثر لمساواته له معنى مع كونه أخصر لفظا ، فلعله أراد بالأكثر معنى الأرجح والأقوى ونعود إلى بيان سر جمع الألفاظ فى آية : « وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود » .

فقد جمعت الطائفين والقائمين جمع سلامة والسر فى جمعها على هذا الجمع هو ما فى لفظ اسم الفاعل من الاشعار بالثبوت والاستمرار التجددى ، فان البيت العتيق لا يخلو من الطائفين والقائمين فى أى زمن من الأزمنة وهم مستمرون فى الطواف والقيام استمرارا يتجدد بتجدد الطائفين والقائمين الذين يقصدونه من كل فج وصوب ، ومن أجل هذا عدل عن المجيء بالفعل لأنه مقيد بزمن .

ثم أتى بعد ذلك بالركع السجود ، وانما جمعهما جمع تكسير وعدل عن جمعهما جمع السلامة لما ذكر من أن جمع السلامة فى الطائفة والقائمة فيه تنبيه على تجدد الطواف المختص بالبيت ، واستمراره والقيام لأنه نوع منه بخلاف الركوع والسجود فانهما لا يختصان بالبيت بل كما يكونان فيه يكونان بغيره من جميع الأماكن فى الأرض ثم وصف الركع بالسجود ، ولم يعطفه بالواو كما فعل

---

(٣) انظر حاشية قطب الدين التحتانى على الكشاف ورقة ٤٨٩ .

بالقائمين ، لأن الركع هم السجود ، والشيء لا يعطف على نفسه كما لا تقول : جاءني زيد والكريم على أن يكون الكريم هو زيد اللهم الا اذا كان على سبيل التجريد كما اذا جردت من زيد شخصا آخر ووصفته بالكرم وهو أي الشخص هو زيد وليس انسانا آخر للمبالغة، وفي الآية مانع آخر للعطف وهو أن السجود قد يكون عبارة عن المصدر فلو عطفه لأوهم كونه مصدرا والمراد الجمع .

فان قيل : هلا قال : السجد ليطابق قوله : الركع كما جاء في آية أخرى « تراهم ركعا سجدا » أو قال : الركوع ليطابق السجود فما وجه المخالفة بينهما ؟

والجواب أن السجود يطلق على وضع الجبهة على الأرض وعلى الخشوع ، ولو قال السجد لم يتناول الا المعنى الظاهر من غير افادة الخشوع ، ويصدق ذلك قوله تعالى : « تراهم ركعا سجدا » لما كان من رؤية العين ، ورؤية العين لا تتعلق الا بالظاهر فقصد بذلك الإشارة الى السجود المعنوي فالصوري بخلاف الركوع فانه ظاهر في أعمال الجوارح الظاهرة التي لا يشترط فيها البيت كما في الطواف والقيام المتقدمين دون أعمال القلب ، فلأجل هذا جعل السجود وصفا للركع، وانما أراد الخشوع الذي هو روح الصلاة وكمالها(٤) .

وقد يكون في الجمع دلالة على الحرمة والاجلال والتعظيم لمقام رسول الله ﷺ كما في قوله تعالى : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » .

يقول الزمخشري : ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرقوا

---

(٤) الطراز للعلوي ص ٦٤ ، ٦٥ .

على الحجرات متطلبين له فناداه بعض من وراء هـذه وبعض من وراء تلك ، وأنهم قد أتوا حجرة فنادوه من ورائهـا ، وأنهم نادوه من وراء الحجرة التى كان فيها ، ولكنها جمعت اجلالا لرسول الله ﷺ ولمكـان حرمته(٥) فالزمخشرى يدرك بحسه البـلاغى السر فى العـدول عن المفرد الى الجمع فهو ﷺ كان فى حجرة واحدة من حجراته فنادوه من ورائها ، والمولى عز وجل يأبى أن يواجه رسوله ومصطفاه بهذا التحديد فيأتى بصيغة الجمع اجلالا ورفعة لمكانة رسوله ﷺ ولمكان حرمته ، ولذا يقول الزمخشرى : فورود الآية على النمط الذى وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات اكبار محل رسول الله ﷺ واجلاله ، منها مجيئها على النظـم المسـجل على الصائحين بالسـفه والجهـل لمـا أقدموا عليه ومنها لفظ الحجرات وايقاعها كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه ، ومنها المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذى تبين به ما استنكر عليهم(٦) ٠

وقد يكون الشىء واحدا ، ولكنه يجمع لتعدد الفعل المتعلق بـه كما فى قوله تعالى : « والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون » قيل : جمع ميزان القيامة مع أنه واحد باعتبار تعـدد ما يوزن به من الأعمال أو باعتبار أنه يقوم مقـام موازين كثيرة ، لأنه جميز الذرة وما هو كالجبال(٧) ٠

من المعلوم أن جمع السلامة مختص بالعقلاء ، ولكنه أحيانا قد يأتى لجمع غير العاقل ، وذلك لنكتة بلاغية يقتضيها المقام فقد سبق فى

---

(٥) الكشاف ٣/٥٥٨ ٠

(٦) الكشـاف الموضع السـابق ٠

(٧) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن ص ١٨٦ ٠

سورة يوسف أن المولى عز وجل عامل الكواكب معاملة العقلاء فوصفهم بجمع السلامة فى قوله تعالى : «والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين» لأنه سبحانه أسند اليهم فعل العقلاء وهو السجود ، والشىء قد يعامل معاملة شىء آخر اذا شاركه فى صفة ما •

وفى قوله تعالى فى سورة الشعراء : «فظلت أعناقهم لها خاضعين» فقوله تعالى : « خاضعين » خبر ظل وهو فى المعنى وصف للأعناق وهى مما لا يعقل فكان مقتضى الظاهر أن يقول : « فظلت أعناقهم لها خاضعة » ولكن النظم القرآنى عدل عنه الى جمع السلامة لاقتضاء المقام اياه ، ولذلك وجه المفسرون هذا الجمع بعدة توجيهات :

أحدها : أن المراد بالأعناق الرؤساء كما قيل لهم وجوه وصدور ، وعلى هذا يكون مجازا مرسلا علاقته الجزئية عبر بالجزء وأراد الكل لما لهذا الجزء من أثر كبير فى المعنى المراد من الكل وهو خضوع الرؤساء كما قيل :

● فى محفل من نواصى الخيل مشهور ●

ثانيها : أنه على حذف مضاف أى فظل أصحاب الأعناق ثم حذف وبقى الخبر على ما كان عليه قبل حذف المخبر عنه مراعاة للمحذوف •

الثالث : أنه لما أضيف الى العقلاء اكتسب منهم هذا الحكم كما يكتسب التأنيث بالاضافة لمؤنث فى قوله :

● كما شرقت صدر القناة من الدم ●

الرابع : أنها عوملت معاملة العقلاء لما أسند اليهم ما يكون من فعل العقلاء كقوله « ساجدين » و « طائعين » فى يوسف والسجدة

الخامس : قيل : أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين فذكرت الأعناق لبيان موضع الخضوع ثم ترك الكلام على أصله •

وقد يكون المفرد دالا على الكثرة من أصل الوضع ثم يجمع هذا المفرد فتتضاعف الكثرة .

وقد يترقى فى الدلالة على زيادة مضاعفة الكثرة فيتبع الجمع بوصف مشتق منه كما فى قوله تعالى : « والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة »(٨) فالقنطار مفردا يفيد الكثرة بدلالة قوله تعالى : « وآتيتم إحداهن قنطارا » ، وقد كان القنطار عند العرب وزنا ومقدارا من الثروة يبلغه بعض المثرين وهو أن يبلغ ماله مائة رطل فضة ، ويقولون : قنطر الرجل اذا بلغ ماله قنطارا وهنا جمع القنطار على قناطير وهو جمع كثرة .

ولم يكتف بهذا بل وصف القناطير بوصف مشتق منها وهو « المقنطرة » للدلالة على تكثيرها مع كثرتها فى ذاتها بل أريد منها المضاعفة المتكاثرة لأن اشتقاق الوصف من اسم الشىء الموصوف اذا اشتهر صاحب الاسم بصفة يؤذن ذلك الاشتقاق بمبالغة فى الحاصل به كقولهم : ليل أليل ، وظل ظليل وداهية دهياء ، وشعر شاعر ، وابل مؤبلة ، وآلاف مؤلفة(٩) .

وقد يكون الجمع دالا على التصغير والتحقير كما فى قوله تعالى: « ولو تقول علينا بعض الأقاويل »(١٠) الأقاويل جمع أقوال ، وأقوال جمع قول فهو جمع الجمع .

قال الزمخشرى : سمى الأقوال المنقولة أقاويل تصغيرا لها وتحقيرا

---

(٨) آل عمران الآية ١٤ .
(٩) التحرير والتنوير ٣/١٨٢ .
(١٠) سورة الحاقة آية ٤٤ .

كقولك : الأعاجيب والأضاحيك(١١) ، فهى أقوال متكلفة لا وزن لها لأن فيها نسبة قول الى الله تعالى لم يقله .

وفى قوله تعالى : « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم »(١٢) فى صيغة « آهوائهم » بالجمع اشارة الى كثرة الاختلاف بينهم وأن بعضهم يكفر بعضا(١٣) .

الدلالة البلاغية لجمع المصـــدر :

من المعلوم أن المصدر لا يجمع فى الأعـم الأغلب لدلالتـه على القليل والكثير وقد يجمع المصدر للدلالة على اختلاف أنواعه كمـا فى قوله تعالى : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » فجمعت الأمانة وهى مصدر للدلالة على اختلاف أنواعها لوقوعها على الصلاة والزكاة والصوم والحج . وغير ذلك من العبادات ولوقوعها أيضا على حقـوق العباد فجاز جمعها لأنها لاختلاف أنواعها شابهت المفعـول به فجمعت كما يجمع المفعول به(١٤) . ولما كان العهد لا يتنوع تنوع الأمانة أفـــرد .

وقد جمع المصدر أيضـا لاختـلاف أنواعه فى قـوله تعـالى : « وتظنون بالله الظنونا » فقد جمع الظن وهو خطاب للذين آمنوا وهم ليسوا على درجة واحدة من الايمان فمنهم الثبت القلوب والأقدام ، والضعاف القلوب الذين هم على حـرف ، والمنافقون الذين لم يوجـد الايمان منهم الا بألسنتهم ، فـلابد أن يتنوع ظن هـؤلاء الطوائف

---

(١١) الكشاف ٤ .

(١٢) سورة البقرة آية رقم ١٢٠ .

(١٣) روح المعانى ٣٨٢/١ .

(١٤) تحفة الأشراف فى كشف غوامض الكشاف للفاضل اليمنى للمؤلف .

الثلاث بالله ازاء قوة المشركين الذين تحزبوا واجتمعوا لقتال المسلمين في غزوة الأحزاب حيث جاءوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، وحينئذ زاغت منهم الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، فكان ظن الأولون بالله أنه يبتليهم ويفتنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال ، وأما الآخرون وهم ضعاف القلوب والمنافقون فظنوا بالله ما حكى عنهم فى قوله تعالى : « واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا • » فظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون(١٥) •

ومن الجمع لاختلاف أنواعه قوله تعالى : « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره » •

والمعنى : سخر لكم هذه المخلوقات ونفعكم بها فى حال كونها مسخرات لما خلقت له وقد سخرها أنواعا من التسخير فجمع مسخر بمعنى تسخير لارادة الأنواع اذ التسخير يتنوع بحسب المنفعة المنوطة به فسخر النهار للعمل والسعى والليل للسكون والراحة والشمس للدفء فى الشتاء ونمو النبات والاشجار ، والظل للتبرد فى الصيف ، وتسخير الشجر للاكل من ثماره والنجوم للاهتداء بها والقمر لحساب الشهور والسنين وغير ذلك من أنواع التسخير ومعنى تسخيرها أى انقيادها وجعلها خاضعة للنظام الذى خلقها الله عليه بدون تغيير لمنفعة الانسان واقامة حياته على ظهر الأرض •

فقد أصبحت هذه الأشياء لكونها تابعة لتدبيره وتصريفه كما يشاء كأنهن مأمورات منقادة لأمره بل كأن لها قوة الاحساس لدرجة أنها تسمع الأمر وتجاوب معه اذا آثر القرآن الكريم التعبير بالأمر مرادا به القضاء لبيان مدى قدرته وارادته فى تحريك وتسخير تلك المخلوقات على معنى أنها اذا صدر الأمر لها سرعان ما تستجيب لأمره وتنقاد له •

---

(١٥) الكشاف ٣/٢٥٣ •

ونلاحظ أيضا أنه جمع الآية وذكر العقل فى تذييل الآية بقوله « ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » والسر فى ذلك هو أن كل ما ذكر فى الآية من المخلوقات المسخرة العلوية وهى أظهر دلالة على القدرة الباهرة وهى متشعبة وفيها أنواع من الدلالات والآثار العلوية ظاهرة فى مرأى العين تدرك بالعقل ، وختمت به الآية للدلالة على أن كل من كان عاقلا علم بطريق الاستدلال العقلى على أن مسخر هذه الأشياء لمنفعة الإنسان هو الله وحده القادر على كل شىء وبطل ما يقوله الجاحدون من الدهريين من أن يكون حدوث النبات والحيوان لأجل تأثير الطباع والأفلاك والأنجم •

وقد أفردت الآية فى الآية السابقة للدلالة على وحدة المدلول عليه وهى نعمة الماء الذى يكون سببا فى احداث نعم المأكل من الحيوان والنبات والمشرب من الماء العذب النازل من السماء •

والمعنى : « ان فى ذلك لآية » أى فى انزال الماء من السماء ليكون سببا فى حياة الانسان لأنه يكون سببا فيما به قوام حياته من المأكل والمشرب •

وقد جمعت الآية وأفردت فى السورة السابقة وهى سورة الحجر فى قوله تعالى أولا : « ان فى ذلك لآيات للمتوسمين » ثم قال بعد ذلك : « ان فى ذلك لآية للمؤمنين » ولعل السر فى جمع الآية •

أولا : وافرادها بعد ذلك بآية واحدة هو ما نفهمه من السياق فقد ذكرت أولا بالجمع بعد الحديث عن قوم لوط وما نزل بهم من العذاب جزاء ما ارتكبوه من الفاحشة ، وهذا العذاب قد تنوع فقد عذبوا أولا : بالصيحة الهائلة المنكرة • وعذبوا ثانيا : بانقلاب قريتهم بجعل عاليها سافلها •

وعذبوا ثالثا : بما أمطر عليهم من حجارة من سجيل ، وكل نوع من أنواع هذا العذاب ينبغي أن يكون آية مستقلة فى التبصر والاعتبار لاسيما أن آثار هذه « مقابلة الجمع بالجمع » .

قد يقتضى المقام النص على مقابلة الجمع بالجمع أى مقابلة كل فرد من هذا بكل فرد من هذا كقوله تعالى: «فاستبقوا الخيرات»(١٦)، كان من الجائز فى غير القرآن أن يقال فاستبقوا الخير ، ولكنه جمع لنكتة بلاغية لاقتضاء المقام أن كل فرد مأمور بالاستباق الى كل خير ، وليعم كل وجوه الخير كما يقال لبس القوم ثيابهم ، وركبوا دوابهم ، ومنه قوله تعالى : « حافظوا على الصلوات »(١٧) فمقـابلة الجمـع بالجمع تفيد أن كل فرد مأمور بالمحافظة على كل الصلوات فى أوقاتها المحددة صـلاة بعد صـلاة .

ومنه قوله تعالى : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهـاجروا فى سبيل الله »(١٨) جمع أولياء مراعاة لجمع المخاطبين ، فان المراد نهى كل من المخاطبين عن اتخاذ كل من المنافقين وليـا أى اذا كان حالهم ما ذكر من الودادة فلا توالوهم ومن مقابلة الجمع بالجمع قوله تعالى : « ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا أى أرشد كلا منـا سبيله ومنهاجه الذى شرع له وأوجب عليه سلوكه فى الدين(١٩) فجمع السبيل باعتبار جمع سالكيه أى هدى كل واحد منا سبيله .

ومن مقابلة الجمع بالجمع فى التشبيه قوله تعالى : « ثم قسـت قلوبكم بعد ذلك فهى كالحجارة » يقول الألوسى : فهى كالحجارة أى فى القسوة وعدم التأثر وجمع الحجارة لمقابلة جمع القلوب ، وللاشارة الى أنها متفاوتة فى الصلابة كما أن الحجارة متفاوتة فى الصلابة(٢٠)

---

(١٦) سورة البقرة الآية ١٤٨ (١٧) سورة البقرة الآية ٢٣٨ .
(١٨) سورة النساء من الآية رقم ٨٩ (١٩) روح المعانى ١٣/١٩٨ .
(٢٠) روح المعانى ٦/٣٩٥ .

الفصل السابع

بين الافراد والتثنية

ومن وقوع الضمير مفردا موقع المثنى :

قوله تعالى : « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها » كان مقتضى الظاهر أن يقول « وأتوا بهما متشابها » لأن المتشابه انما هو ما رزقوه من ثمرة الدنيا وثمرة الآخرة ولكنه عدل عن الظاهر وأتى بالضمير مفردا لاعتبار المعنى وهو أن جنس المرزوق فى الآخرة هو جنس المرزوق فى الدنيا ، وكأنهما شىء واحد لا يمكن للمرء أن يفرق بينهما والدليل على ذلك قولهم عند رؤية ما رزقوه من الثمرة : « هذا الذى رزقنا من قبل » ولا يقال ان الآية ليس فيها عدول عن الظاهر لأن الضمير عائد الى جنس ما رزقوه فى الدنيا والآخرة •

نقول : هب أن الضمير فى « به » يعود الى المرزوق لكن قوله « متشابها » حال من هذا الضمير ، والتشابه يستدعى أمرين فكيف يكون شىء واحد متشابها ؟ ، وقد قيل ان المتشابه له اعتباران :

الأول : الوحدة وهى طبيعة المرزوق •

الثانى : الكثرة وهى جهتا الدنيا والآخرة فالمرزوق متشابه بحسب هاتين الجهتين •

وقيل : يجوز أن يرجع الضمير فى « وأتوا به » الى المرزوق فى الآخرة كما أن هذا من قوله تعالى : « هذا الذى رزقنا من قبل » اشارة

اليه والتشابه باعتبار أفراده ، وعلى هذا يكون الضمير على حقيقتـــه ليس فيه عدول عن المثنى .

وقيل : ان المراد من قبل يعنى فى الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون فاذا أتوا بطعام وثمار فى أول النهـــار فأكلوا منها ، ثم أتوا منهـــا فى آخر النهار قالوا هذا الذى رزقنا من قبل يعنى أطعمنا فى أول النهار لأن لونه يشبه ذلك فاذا أكلوا منها وجدوا لها طعما غير طعم الأول(١) .

وفى قوله تعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » أفرد الضمير فى قوله تعالى : « فتاب عليـــه » ولم يقل « عليهما » وحواء مشاركة له فى الذنب ، وقد قرنت معه فى النهى عن قرب الشجرة قال تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » وقرنت معه أيضا فى الاعتراف بالظلم أى ظلم أنفسهما قال تعالى : « قالا ربنـــا ظلمنا أنفسنا » وقد أسند اليه العصيان وحده فى قوله تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى » قال القرطبى فى السر فى افراد آدم بالتلقى والتوبة والعصيان هو أن أمر المرأة مبنى على الصـــون والستر فهى حرمـــة مستورة فأراد الله الستر لها ولذلك لم يذكرها فى المعصية ، وأيضا لمـــا كانت المرأة تابعة للرجل فى غالب الأمر لم تذكر كما لم يذكر فتى موسى مع موسى فى قوله « ألم أقل لك » وقيل انه دل بذكر التوبة عليه أنه تاب عليهما اذ أمرهما سواء(٢) .

وأقول : ان افراد آدم بالتلقى والتوبة مع أنه مشترك فى الذنب مع حواء على سبيل التغليب غلب آدم بالذكر على حواء لأنها تابعـــة له ، أو أسند اليه أمر التلقى والتوبة وحـــده لمـــا يترتب على ذلك من

---

(١) تفسير القـــرطبى ١/٢٠٦ .
(٢) تفسير القـــرطبى ١/٢٧٧ .

عمارة الكون بالخلافة التي وعد بها ، ودوره في عمارة هذا الكون أقوى وأظهر ، أو لأن أمر التلقي والتوبة يترتب عليهما ارتفاع شأنه بالاصطفاء والنبوة وهي خاصة به عليه السلام .

وفي قوله تعالى : « والله ورسوله أحق أن يرضوه » نجد النظم القرآني قد عدل عن ذكر الضمير مثنى لكونه راجعا الى الله ورسوله الى ذكره مفردا فما السر في ذلك ؟

يقول الزمخشري : وانما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله ﷺ فكانا في حكم مرضي واحد كقولك احسان زيد واجماله نعشني وجبر مني أو والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك(٣) .

وعلى الرأي الثاني ليس فيه عدول عن التثنية الى الافراد اذ ان ضمير الافراد بمقتضى هذا الرأي هو الأصل لأنه يعود على لفظ الجلالة ، وقد حذف الخبر من الثاني لدلالة الأول عليه ، والوجه الأول أقوى وأرجح لدلالة السياق عليه ، فهؤلاء الذين تخبر الآية عن حلفهم للمؤمنين كي يرضوهم هم جماعة من المنافقين كانوا يتعمدون الرسول — ﷺ — بالايذاء وينقولون عليه الأقاويل .

قال تعالى : « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » التوبة : ٦١ .

وعلى منوال الآية السابقة قوله تعالى في شأن المنافقين أيضا : « واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون » النور : ٤٨ ، وقوله سبحانه بعد ذلك بآيتين : « انما كان قول المؤمنين

---

(٣) الكشاف ١٩٩/٢ .

إذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون » (النور : ٥١) •

فمن المعلوم أن الذى يتولى الحكم بينهم انما هو رسول الله ﷺ ويكون الحكم بما شرعه الله عز وجل ، فالحكم فى الحقيقة ليس حكم الرسول فقط وانما هو حكم الله ورسوله وانما أسند الفعل « ليحكم » الى ضمير الافراد للدلالة على توحد الحكم ، وللاشعار بأن ما يحكم به الرسول ﷺ هو بعينه حكم الله •

ومن العدول عن التثنية الى الافراد كذلك قوله عز وجل مخاطبا موسى وهارون عليهما السلام : « فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين » فقد وردت لفظ « رسول » مفردة مع أن ظاهر السياق يقتضى تثنيتها •

ذكر المفسرون سر افرادها هنا فى الشعراء ، وتثنيتها فى سياق آخر للقصة ذاتها فى سورة طه : ٤٧ فى قوله سبحانه : « فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل » •

يقول الزمخشرى : « فان قلت : هلا ثنى الرسول كما ثنى فى قوله انا رسولا ربك ؟ قلت : الرسول يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته ، وجعل ههنا بمعنى الرسالة فجازت التسوية فيه اذ وصف به بين الواحد والتثنية والجمع كما يفعل بالصفة بالمصادر نحو « صوم وزور » ، واستشهد الزمخشرى على ذلك بقول الشاعر :

ألكنى اليها وخير الرسو ل أعلمهم بنواحى الخبر(٤)

---

(٤) الكنى : أرسلنى من الألوكة وهى الرسالة ، والمراد بخير الرسول : خير الرسل بدليل اضافة خير اليه مع كونه معرفا ، وبدليل قوله : « أعلمهم » وانما جاز التعبير عن الرسل بالرسول ، لأن المراد به الرسالة وهو على الوصف بالمصدر للمبالغة •

واستشهد الزمخشري أيضا بقول كثير :

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم   بسر ولا أرسلتهم برسول

أي ما أرسلتهم برسالة والدليل على أن « رسول » فى بيت « كثير » بمعنى رسالة من وجهين :

أحدهما : أنه لو كان « رسول » بمعنى « مرسل » لأدى الى كلام لا معنى له اذ يصير المعنى : ولا أرسلتهم بمرسل بخلاف ما أرسلتهم برسالة •

ثانيهما : أن أرسل يتعدى الى المرسل بنفسه دون الباء بخلاف الرسالة فان الفعل يتعدى اليها بالباء كما فى هذه الآية •

وذكر الزمخشري وجها ثانيا لسر افراد الرسول فى الآية فقال : ويجوز أن يوحد لأن حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما لذلك وللأخوة كان حكما واحدا فكأنهما رسول واحد •

وذكر الرازي بالاضافة الى ما نقله عن الزمخشري وجوها أخر :

أحدها : أن الرسول اسم للماهية من غير بيان أن تلك الماهية واحدة أو كثيرة ، والألف واللام لا يفيدان الا الوحدة لا الإستغراق، بدليل أنك تقول : الانسان هو الضحاك ولا تقول : كل انسان هو الضحاك واذا ثبت أن لفظ الرسول لا يفيد الا الماهية وثبت أن الماهية محمولة على الواحد وعلى الإثنين ثبت صحة قوله تعالى : « انا رسول رب العالمين » •

ثانيا : المراد كل واحد منا رسول أي أنه أفرد للدلالة على استقلال كل واحد منهما بالوصف وهو الارسال •

ثالثها : أنه انما قال ذلك أى بالافراد لا بلفظ التثنية لكونه هو الرسول خاصة (٥) ، وهذا أضعف الوجوه المتقدمة .

وذكر القرطبى وجها آخر غير ما ذكره كل من الزمخشرى والرازى فقال : ويجوز أن يكون الرسول فى معنى الاثنين والجمع فتقول العرب : هذا رسولى ووكيلى ، وهذان رسولى ووكيلى ، وهؤلاء رسولى ووكيلى ومنه قوله تعالى : « فانهم عدو لى »(٦) .

ويرى باحث معاصر أن « رسول » فى الآيتين لا تعنى سوى الشخص المرسل ، ولكن السياق هو الذى أدى الى تثنيتها فى سورة طه وافرادها فى سورة الشعراء فالسياق الذى وردت فيه فى سورة طه يختلف عنه فى الشعراء ، فكل من الآيتين الكريمتين قد سيقت فى سياقها باعلان الخوف من بطش فرعون وطغيانه .

غير أن هذا الاعلان قد ورد فى سورة طه على لسان الرسولين — موسى وهارون — عليهما السلام — ومن ثم جاءت لفظة رسول مثناه لبعث الطمأنينة والثقة فى قلبيهما واقتلاع جذور الخوف من نفسيهما معا قال تعالى : « قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قالا لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى فأتياه فقولا انا رسولا ربك .. » (طه : ٤٥ ، ٤٧) .

أما فى سورة الشعراء فقد ورد الاخبار عن الخوف من فرعون وآله على لسان موسى — عليه السلام — وحده ، ومن ثم كان افراد لفظة رسول فى تلك السورة تهدئة لروعه وتطمينا لمخاوفه عليه السلام . قال تعالى : « قال رب انى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق

---

(٥) مفاتيح الغيب للرازى ٢٣/١٠٩ .
(٦) تفسير القرطبى ٧/٤٨١٠ .

لسانى فأرسل الى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . قال كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين » الشعراء : ١٢ — ١٦(٧) .

وفى قوله تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان » يقول الزمخشرى : فان قلت : لم ثنيت اليد فى « بل يداه مبسوطتان » ، وهى فى « يد الله مغلولة » مفردة ؟ قلت : ليكون رد قولهم وانكاره أبلغ وأدل على اثبات غاية السخاء له ونفى البخل عنه ، وذلك أن غاية ما يبذله السخى من ماله بنفسه أن يعطيه بيديه جميعا فبنى المجاز على ذلك(٨) .

وقد ذكر الفخر الرازى اشكالا فى تفسير اليد فى حق الله تعالى بالنعمة قائلا : ان فسرتم اليد بالنعمة فنص القرآن ناطق باثبات اليدين ، ونعم الله غير محدودة كما قال تعالى : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها »(ابراهيم : ٣٤) ثم ذكر الجواب عن هذا الاشكال من وجهين :

الوجه الأول : أنه نسبة بحسب الجنس ثم يدخل تحت كل واحد من الجنسين أنواع لا نهاية لها فقيل : نعمتاه نعمة الدين ونعمة الدنيا، أو نعمة الظاهر ونعمة الباطن أو نعمة النفع ونعمة الدفع .

الوجه الثانى : أن المراد بالنسبة المبالغة فى وصف النعمة ، الا ترى أن قولهم : لبيك معناه اقامة على طاعتك بعد اقامة ، وكذلك « سعديك » معناه : مساعدة بعد مساعدة وليس المراد

---

(٧) اسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية للدكتور حسن طبل ١٢١
(٨) الكشاف ٦٢٨/١ .

منه طاعتين ولا مساعدتين فكذلك الآية ، المعنى فيها أن النعمة متظاهرة متتابعة ليست كما ادعى من أنها مقبوضة ممتنعة(٩) .

وجاءت جملة « غلت أيديهم » فى مقابلة قولهم : السـابق « يد الله مغلولة » لانشاء الدعاء عليهم بالبخـل أو الفقـر والعجز ، وذلك على طريقة العرب فى انتزاع الدعاء من لفظ مشاكل كقـول النبى ـ ﷺ « أسلم سلمها الله ، وغفار غفر الله لها » ، وقيل : «غلت أيديهم» . حقيقة الأسر فى الدنيا ، والسوق على هذه الهيئة الى نار جهنـم فى الآخـــرة(١٠) .

وفى قوله تعالى : « والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين » نجد أن المتقدم مريم وابنها عيسى عليه السلام فكان مقتضى الظاهر أن تثنى الآية ، ولكنها أفردت لأن كلا منهما آية بالآخر فصارا آية واحدة .

أو نقول انه حذف من الأول لدلالة الثانى أو بالعكس أى وجعلنا ابن مريم آية وأمه كذلك على منوال قوله تعالى : « والله ورسوله أحق أن يرضوه »(١١) وقيل : ان المراد وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين ، والذى يترجح عندى هو القول الأول وهو أن الآية فيهما واحـــدة .

ونظير الوجه الثانى فى هذه الآية قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته »(١٢)

---

(٩) مفاتيح الغيب .
(١٠) روح المعانى ١٨٠/٦ .
(١١) التوبة : ٦٢ .
(١٢) الحج آية ٥٢ .

فقوله تمنى اسند الفعل الى ضمير المفرد مع أن المتقدم اثنان وهما الرسول والنبى ، وهما قد عطف أحدهما على الآخر بالواو والعطف يقتضى المغايرة فقيل : انما افرد الضمير لأن فى الكلام حذفا تقديره : وما أرسلنا من قبلك من رسول الا اذا تمنى ولا نبى الا اذا تمنى كقوله تعالى : « والله ورسوله أحق أن يرضوه » •

من المعلوم أن كلمة بين تدخل على المثنى فما فوقه ، ولكننا وجدناها فى النظم الكريم دخلت على المفرد فى عدة مواضع منها قوله تعالى : « ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه » فدخلت بين على ضمير الغيبة المفرد العائد الى السحاب المذكور فى الآية •

قيل : اما أن يراد بالسحاب الجنس فعاد الضمير اليه على حكمه، واما أن يراد حذف مضاف أى بين قطعه فان كل قطعة سحابة(١٣) بدلالة التأليف بينه أى بين قطعه ، أى أنه يكون قطعا متفرقة ثم يجمعها الله عز وجل ويؤلف بينه فاذا هو ركام بعضه فوق بعض ، فاذا ثقل خرج منه الماء • ومنه قوله تعالى : « عوان بين ذلك » فقوله « بين ذلك » صفة لعوان ، وبين انما تضاف لشيئين فصاعدا ، وجاز أن تضاف هنا الى مفرد ، لأنه يشار به الى المثنى والمجموع كقول الشاعر :

ان للخير وللشر مدى ... وكلا ذلك وجه وقبل

كأنه قيل بين ما ذكر من الفارض والبكر •

وقد يتقدم اثنان ويسند الضمير بعد ذلك لأحدهما كما فى قوله تعالى : « واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم »(١٤) أفرد الضمير

---

(١٣) الدر المصون ٢٢٥/٥ •
(١٤) النور آية : ٤٨ •

المسند الى الفعل « ليحكم » وقد تقدمه اسمان وهما الله ورسوله ، فهو كقوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه ، فقد عاد الضمير فى قوله يرضوه الى « رسوله » لأن حكم رسوله هو حكم الله فذكر الله تمهيد لذكر رسول الله ، واشعار باظهار مكانته ﷺ ، ولا يليق بالأدب مع الله عز وجل أن يكون اسمه الأعظم مقحما فى النظم كما ذهب الى ذلك الزمخشرى فى تفسيره(١٥) لنظير هذه الآية وهى قوله تعالى: « يخادعون الله والذين آمنوا » .

قيل : ان الخديعة هى من الخداع الذى أصله الاخفاء فمعنى خادع أى أنه موهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه ، وقيل : هو الفساد ، والخديعة بهذا المعنى لا تكون مع الله عز وجل ، لأنه تعالى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ولذلك قيل فى تأويل الآية أقوال متعددة منها أن خداع الله من حيث الصورة لا من حيث المعنى ، وقيل : لعدم عرفانهم بالله وصفاته ظنوه ممن يخادع وقال الزمخشرى : « ان اسم الله تعالى مقحم والمعنى : يخادعون الذين آمنوا ، ويكون من باب أعجبنى زيد وكرمه المعنى أعجبنى كرم زيد ، وانما ذكر زيد توطئة لذكر كرمه ، وجعل ذلك نظير قوله تعالى : « والله ورسوله أحق أن يرضوه » وقوله تعالى : « ان الذين يؤذون الله ورسوله وقد اعترض عليه السمين الحلبى فى ذلك فقال : وهذا منه غير مرض لأنه اذا صح نسبة مخادعتهم الى الله تعالى بالأوجه المتقدمة فلا ضرورة تدعو الى زيادة اسم الله تعالى ، وأما « أعجبنى زيد وكرمه » فان الاعجاب أسند الى زيد بجملته ، ثم عطف عليه بعض صفاته تمييزا

---

(١٥) الكشاف ١/١٧٢ .

لهذه الصفة من بين سائر الصفات للشرف فصار من حيث المعنى نظيرا لقوله تعالى « وملائكته وكتبه ورسله ، وجبريل وميكال »(١٦) • أى أنه من باب عطف الخاص على العام •

ومن الصيغ المشكلة فى النظم القرآنى صيغة المثنى مع أن مدلولها مفرد كما فى قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير »(١٧) فقوله : « فيهما يعود على السموات والأرض ، والسماء لا دواب فيها » •

ومن هنا اختلف تأويل المفسرين فى تثنية الضمير فى قوله : « فيهما » فقيل : عبر بالمثنى وأراد المفرد كقوله تعالى « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان »(١٨) ، وانما يخرجان من الملح دون العذب وكقوله تعالى : « نسيا حوتهما »(١٩) قيل : الناسى هو فتى موسى عليه السلام وحده فقد نسى أن يعلم موسى بما رأى من حاله فنسب النسيان اليهما للصحبة •

وكقوله تعالى « يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم » وانما الرسل من الانس لا من الجن ، ونقول فى هذه المواضع المشكلة: ان اللؤلؤ والمرجان وان كانا يخرجان من الملح فقط الا أنهما لما كان يلتقيان فى بعض الأماكن نسب الفعل اليهما قال تعالى : « مرج البحرين يلتقيان » ونسب النسيان لموسى وفتاه للصحبة ، وفى آية الشورى ، لا يمنع أن يكون فى السموات خلق يدب ولكننا لا نعلمهم قال تعالى : « ويخلق ما لا تعلمون » وقيل : المراد الملائكة فمنهم من

---

(١٦) الدر المصون ١/١٢٦ •
(١٧) الجاثية : ٢٩ •
(١٨) الرحمن آية ٢٢ •
(١٩) سورة الكهف آية ٦١ •

يمشى مع طيرانه ، وعلى هذا تكون التثنية فى الضمير على حقيقتها • أو أن الملائكة لهم دبيب مع طيرانهم •

افراد ضمير الغيبة مع عوده على مثنى :

كما فى قوله تعالى : « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه »(٢٠) أفرد ضمير الغيبة فى « يرفعه » مع أنه تقدم شيئان مختلفان وهما الكلم الطيب والعمل الصالح ، قال السمين : وانما وحد الضمير وان كان المراد الكلم والعمل ذهابا بالضمير مذهب اسم الاشارة كقوله : عوان بين ذلك •

وقيل : انما وحد الضمير لاشتراك كل من الكلم الطيب والعمل الصالح فى صفة واحدة وهى الصعود • وقيل : ان الضمير يعود على الكلم الطيب أى العمل الصالح يرفع الكلم الطيب(٢١) •

وقيل ان ضمير النصب فى يرفعه يعود على صاحب العمل أى يرفع صاحبه ومنه قوله تعالى : « وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره »(٢٢) فقوله : « من ثمره » الضمير مفرد مع أنه مسبوق بالنخيل والأعناب وهما شيئان فكان من حق الضمير أن يثنى ، ولذلك قيل : ان الضمير عائد على النخيل وقد اكتفى بذكر أحدهما لعدم اللبس ، وقيل : الضمير يعود على « جنات » وعاد بلفظ المفرد لذهابه بالضمير مذهب اسم الاشارة وهو كقول رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق　　　كأنه فى الجلد توليع البهق

---

(٢٠) فاطر : ١٠ •

(٢١) الدر المصون : ٤٦١ •

(٢٢) سورة يس : ٣٤ ، ٣٥ •

ويقول الزمخشري : أصله « من ثمرنا » ليتفق مع اسناد الأفعال في السياق الى نون العظمة في قوله : فجرنا وأيدينا ثم نقل الكلام من التكلم الى الغيبة على طريق الالتفات ، والمعنى ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر ، وعلى هذا يكون الضمير عائد على الله تعالى • وفي قوله تعالى : « واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين »(٢٣) •

الضمير في « انها » يعود على الصلاة وان تقدم شيئان لأنها أهم وأغلب حيث تتكرر وجوبا في اليوم خمس مرات وقيل : ان الضمير عائد الى الاستعانة التي يدل عليها قوله تعالى « واستعينوا » على منوال قوله تعالى : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » أي العدل المفهوم من « اعدلوا » ، وقيل ان الضمير عائد الى جميع الأمور التي أمر بها بني اسرائيل ونهوا عنها من قوله تعالى « اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم •• الى قوله : واستعينوا » وهذا الوجه قال به صاحب الكشاف وتبعه الفخر الرازي وجمع من المفسرين واستحسنه الشيخ الطاهر بن عاشور ، حيث قال : « وهذا أوضح الأقوال ، وأجمعها » (٢٤) •

وقد نوه الفخر الرازي بقيمة هذا الوجه ومكانه في البلاغة من حيث الاختصار والايجاز فقال : والعرب قد تضمر الشيء اختصاراً أو تقتصر فيه على الإيمان اذا وثقت بعلم المخاطب ، فيقول القائل : «ما عليها أفضل من فلان» يعني الأرض ،ويقولون ما بين لابتيها أكرم من فلان يعنون المدينة (٢٥) •

---

(٢٣) سورة البقرة من الآية رقم ٤٥ •
(٢٤) التحرير والتنوير .
(٢٥) تفسير الفخر الرازي ٢/٧١ :

ويرى المرحوم سيد قطب أن الضمير فى قوله « وانها » ضمير الشأن(٢٦) ، والشيخ الشعراوى له فى ذلك رأى وجيه حيث قال : وكان سياق الآية يقتضى أن يقال : « وانهما » لكن القرآن قال : « وانها » فهل المقصود واحدة منهما الصلاة فقط أم الصبر ؟ نقول انه عندما يأتى أمران منضمان الى بعضهما لا تستقيم الأمور الا بهما معا يكونان علاجا واحدا واقرأ قوله تعالى « يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين » (٢٧) فقال : يرضوه ولم يقل يرضوهما نفس التفسير السابق نفهمه : ليس لله حق ولرسوله حق ، ولكن الله ورسوله يلتقيان على حق واحد .

وهنا نقف وقفة مع فضيلة الشيخ الشعراوى لنقول ان الضمير المفرد فى قوله تعالى : « والله ورسوله أحق أن يرضوه » لا يرجع الى الحق المفهوم من قوله « أحق » حتى يكون مفردا ، ولكن راجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الضمير يعود الى أقرب مذكور ، وأفرد لأن رضا رسول الله ﷺ هو رضا الله تعالى. فلا فرق بين الارضاءين فهما يلتقيان على رضا واحد ، ونعود الى تتمة كلام الشيخ الشعراوى فيقول : وكذلك قوله تعالى : « واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما »(٢٨) وكان المفروض أن يقال اليهما . ولكن التجارة واللهو لهما عمل واحد هو شغل المؤمنين عن العبادة والذكر (٢٩) .

ونقول : ان الصبر والصلاة شيئان كل منهما مكمل للآخر فالصلاة فى حاجة الى الصبر ، لأن المرء يخالف نفسه وهواه فى اللجوء الى

---

(٢٦) فى ظلال القرآن ٦٩/١ .
(٢٧) سورة التوبة ٦٢ .
(٢٨) سورة الجمعة آية ١١ .
(٢٩) تفسير الشعراوى ٣١٤/١ .

الصلاة لأنه يقتطع زمنا من حياته للوقوف بين يدى ربه لا يتخلف عنه كل يوم وليلة ، فكأن المراد : واستعينوا بالصبر على الصلاة لقوله تعالى : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » فكأنهما شىء واحد ، والصبر أيضا فى حاجة الى الصلاة فلها سر عظيم فى تجلية الأحزان والصبر على المصائب والبلايا ، وقد ورد فى الحديث « أن النبى ـ ﷺ ـ كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة ، وهذا القول يتناسب مع السياق لأن المخاطب بهذا الأمر هم بنو اسرائيل لأن صرف الخطاب الى غيرهم يوجب تفكيك النظم ، ولهم صلاة كما للمسلمين صلاة غاية ما فى الباب أن صلاتهم على كيفية ، وصلاة المسلمين على كيفية أخرى ولما أمرهم بالإيمان وترك الاضلال ، وكان شاقا عليهم عالج الله تعالى هذا المرض بأمرهم بالصبر والصلاة أى بأن تصلوا صابرين .

اطلاق المثنى على المفرد :

فى قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة» هنا يتبادر الى الذهن سؤال وهو لم قال « فيهما من دابة » مع أن الدواب انما هى فى الأرض فقط ؟ قيل هو من اطلاق المثنى على المفرد على منوال قوله تعالى « نسيا حوتهما » فان الناسى هو يوشع فقط فتى موسى عليه السلام .

وقيل : ان النسيان نسب الى كل من موسى ـ عليه السلام ـ وفتاه يعنى نسيا تفقد أمره ، فانه كان علامة لهما على ما يطلبانه ،وقيل نسى موسى أن يأمره بالاتيان به ، ونسى يوشع أن يفكره بأمره ،وعلى هذا تكون نسبة النسيان لهما على ظاهرها بدون تأويل(٣٠) .

وقيل فى آية الشورى تأويل آخر وهو أنه سبحانه خلق فى السماء من يدب فان من الملائكة من يمشى مع طيرانهم وهم مبثوثون فى السماء وقيل : الكلام على حذف مضاف أى وما بث فى أحدهما .

---

(٣٠) الدر المصون ٤/٤٧٠ .

ومنه قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وهما انما يخرجان من أحدهما ؛ يقول الزمخشرى : « فان قلت : لم قال منهما وإنما يخرجان من الملح فقط ؟ قلت : لما التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال يخرجان منهما ، كما يقال يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر ، وإنما يخرجان من بعضه ، وتقول : خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله من دار واحدة من دوره (٣١) .

وقيل : لا يخرجان الا من ملتقى الملح والعذب وقال ابن عباس: «تكون هذه الأشياء فى البحر بنزول المطر والصدف تفتح أفواهها للمطر وقد شاهده الناس ، ومنها : أن العذب فى الملح كاللقاح كما يقال : الولد يخرج من الذكر والأنثى ، ولعل الأنسب بالسياق هو أن يكون اللؤلؤ والمرجان يخرجان من موضع التقاء الملح بالعذب بدليل قوله فى الآية السابقة « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » وقد سماهما بحرين على التغليب ، لأن العذب يقال له « نهر » .

وفى قوله تعالى : «ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد» ان قلت : كيف ثنى الفاعل مع أنه واحد وهو مالك خازن النار ؟ قيل هنا ان تثنية الفاعل هنا التأكيد فكأنه قال : ألق ألق على منوال قول امرىء القيس :

قفا نبك ، أو أن العرب أكثر ما يوافق الرجل منهم اثنين ، فكثر على ألسنتهم خطابهما فقالوا خليلى ، وصاحبى ، وقفا ، ونحوهما .

وقيل : الفاعل مثنى وهما الملكان اللذان مر ذكرهما بقوله : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » (٣٢) وقيل : العرب تخاطب الواحد مخاطبة الاثنين تأكيدا كقول الشاعر :

---

(٣١) الكشاف ٤٥/٤ .
(٣٢) فتح الرحمن ص ٥٣٢ .

فان تزجرانى يابن عفان أزدجر   وان تدعانى أحم عرضا ممنعا

وقـال آخـر :

وقلت لصاحبى لا تحبسانا   بنزع أصوله واجدز شيحا

يتنوع الأسلوب القرآنى فيأتى أولا بصيغة المثنى ثم يعدل عنه الى الافراد وذلك لغرض بلاغى يقتضيه المقام وذلك فى قوله تعالى : « فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئنـاك بآية من ربك والسـلام على من اتبع الهـدى .. الى قوله قال فمن ربكما يا موسى » (٣٣) .

ففى قوله : « وجئناك بآية » بالافراد وهما آيتان اذ كان معه آية العصا وآية اليد ، وقبل ذلك فى نفس السورة جمع الآية فقال تعالى : « اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى » فكيف الجمع بين هذه المعانى ؟

نقول : ان العصـا واليد وان كانتـا آيتين على الاجمـال آيات متعددة عند التفصيل ، فان انقلاب العصا حيوانا آية ، ثم أنها كانت صغيرة تهتز كأنها جان ثم صارت كبيرة وهذه آية أخرى ، وصيرورتها ثعبانا آية أخرى ثم انقلابها خشبة آية أخرى .

وكذلك اليد بياضها آية ، وشعاعها آية أخرى وزوالها آية أخرى فهذا هو سر الجمع فى هذا السياق أما افرادها فى قوله تعالى : « قد جئناك بآية من ربك » فان القصد من الآية هنا الجنس ولم يتوجه القصد الى العـدد .

---

(٣٣) طه من ٤٦ الى ٤٩ .

الفصل الثامن

الافـــراد والجمـــع

وقد يذكر وصف جمع التكسير مفردا ، وتكرر الآية ويوصف فيها نفس الجمع جمعا مؤنثا فما السر فى المغايرة بين الوصفين بالافراد والجمع ؟ وذلك فى قوله تعالى فى البقرة « وقالوا لن تمسنا النــار الا أياما معدودة » وفى آل عمران : « وقالوا لن تمســنا النــار الا أياما معدودات » .

والجواب عن ذلك هو أن المغايرة بين الوصفين من التفنن فى التعبير بمراعاة الجمع بين الأصل والفرع اذ الأصل فى الجمع بالألف والتاء اذا كان واحده مذكرا أن يقتصر فى الوصف على تأنيثه مفردا لقوله تعالى : « فيها سرر مرفوعة » ، وقد يأتى سرر مرفوعات على الجمع فهو فرع عن الأول ، فذكر فى البقرة الوصف مفردا على الأصل ، وفى آل عمران الوصف جمعا على الفرع .

وفى قوله تعالى : « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خــالدا فيهــا وله عذاب مهين » (النساء : ١٣ ، ١٤) فجمــع « خالدين » مع المؤمنين أهل الطــاعة وأفردها مع أهل المعصية فما السر فى ذلك ؟

قيل : لأن أهل الطاعة أهل الشفاعة فلمــا كـــانوا يدخلون هم والمشفوع لهم ناسب ذلك الجمع ، والعاصى لا يدخل به غيره النــار فناسب ذلك الافراد وفى الآية أيضا نجد افراد الضمير وجمعه فى قوله

تعالى : « يدخله » وخالدين مراعاة للفظ « من » ومعناها فقد روعى أولا اللفظ فى قوله : يطع ويدخله حيث ان « من » لفظها مفرد .

وروعى ثانيا معنى « من » فجمع فى قوله : « خالدين » ومراعاة اللفظ أولا ثم مراعاة المعنى ثانيا يتفق مع ما درج عليه العرب فى كلامهم وما استقر فى قواعدهم ففى قوله تعالى « فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما » نجد افراد العظام فى الموضعين وهى قــراءة ابن عامر وأبى بكر عن عاصم ، وقرأ السلمى وقتادة والأعرج والأعمش ومجاهد وابن محيصن بافراد الأول « عظاما » وجمع الثانى « عظما » وقرأ أبو رجاء وابراهيم بن أبى بكر ومجاهد أيضا بجمع الأول وافراد الثانى على العكس فقراءة الافراد فى الموضعين راعت اللفظ فقط أى لفظ « انسان ، وسلالة ونطفة » ومن قدم الافراد على الجمع نظر الى اللفظ أولا ثم عقب بالجماعة لأنها هى الغرض لأن المقصود من خلق الانسان من سلالة من طين وهو آدم تكثير ذريته وهم جميع بنى آدم ، ومن عكس بادر اليها اذ كانت هى المقصودة ثم عاد الى اللفظ ، ومراعاة اللفظ أولا والمعنى ثانيا أجرى على قوانينهم ، ألا تراك تقول من قام وقعدوا اخوتك لانصرافه من اللفظ الى المعنى ، وضعف : من قاموا وقعد اخوتك ، لأنك قد أتيت بالجمع على المعنى وانصرفت عن اللفظ ، ومراجعة اللفظ بعد الانصراف عنه تراجع وانتكاس (١) .

وفى قوله تعالى : « ومنهم من يستمع اليك .. » (الأنعام : ٢٥) وفى آية أخرى : « ومنهم من يستمعون اليك .. » (يونس ٤٢) وقوله « ومنهم من ينظر اليك » نلاحظ أنه راعى لفظ من فى الآية الأولى فأفرد الفعل أى ما أسند اليه ، وفى الآية الثانية يراعى معنى « من »

---

(١) تحفة الاشراف القسم الثانى ص ٦٩٦ .

جمع أى أتى بضمير الجمع مسندا للفعل ، وفى الآية الثالثة راعى لفظ « من » فأفرد . ما السر البلاغى للإفراد والجمع فى هذه الآيات ؟

قيل : ان السر فى الافراد فى الآية الأولى هو مراعاة قلة عدد المستمعين فنزلوا منزلة الواحد لاتحادهم فى العناد ، واجتماعهم على الشرك ، وفى الآية الثانية : نزلت فى عدد كثير فناسب الجمع ، فأعيد الضمير على معنى « من » وفى الآية الثالثة : أفرد الفعل أى جىء مع الفعل بضمير المفرد قيل : لأن النظر لا يكون الا فى جهة واحدة وهى الجهة المقابلة للرائى ، وأما الاستماع فانه ليس مقصورا على جهة المقابلة ، وانما يكون من جميع الجهات ، وقد رد هذا الوجه بأن النظر بالنسبة للجمع والافراد فى الآية انما هو باعتبار الأفراد لا باعتبار الجهات ، فتعدد الجهات الصالحة لأحد الفعلين لا يؤثر اذا كان المستمعون والناظرون متحدين ، ولأن الجمع والافراد هنا سواء لأن مفاد « من » الموصولة فيهما هو من يصدر منهم الفعل وهم عدد ، وليس الناظر شخصا واحدا .

ويرى الطاهر ابن عاشور أن العدول عن الجمع الى المفرد فى الآية الثانية هو التفنن وكراهية اعادة صيغة الجمع لثقلها لاسيما بعد أن حصل فهم المراد ، أو لعل اختلاف الصيغتين للمناسبة مع مادة فعلى يستمع وينظر ، ففعل ينظر لا تلائمه صيغة الجمع لأن حروفه أثقل من حروف يستمع فيكون العدول استقصاء لمقتضى الفصاحة(٢) .

وما قاله الشيخ ابن عاشور من عدم ملاءمة الفعل لصيغة الجمع لا يتلاءم مع ما عليه كثير من الآيات التى جاء فيها الفعل بصيغة الجمع ،ولنذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى:«هل ينظرون

---

(٢) التحرير والتنوير ١١/١٨٠ .

الا أن يأتيهم الله » وقوله تعالى : « وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون » وقوله تعالى « فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم .. » وقوله : « ثم نفخ فيه أخـرى فاذا هم قيام ينظرون » وقوله : « ينظرون من طرف خفى » . وقد يكون السر فى اختيار صيغة الافراد مع الفعل « ينظر » لارادة استقلال كل واحد بالنظر الى رسول الله والتوسم فى سمته الشريفة ، ودلائل نبوءته الواضـحة فى جميع أحـواله ... الخ .

ومن الجمع والافراد ، ومنه الى الجمع فيكون الافراد بين جمعين افراد السمع بين جمع الأبصار والقلوب فى قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » (البقـرة : ٧) تعددت آراء المفسرين حول السر فى افراد السمع وجمع الأبصـار فذكر الزمخشرى عدة آراء فقال : « وحد السمع كما وحد البطن فى قوله « كلوا فى بعض بطنكم تعفوا » (٣) — يفعلون ذلك اذا أمن اللبس فاذا لم يؤمن كقولهم : فرسـهم وثوبهم وأنت تريد الجمع ونحـوه(٤) .

يفهم من هذا الرأى أن هذا من وضع الواحد موضع الجمع يعنى أن السمع وضع موضع الأسماع ، وعلى هذا يكون المراد بالأسماع محلها وهى الآذان فيكون المعنى : ختم الله على آذانهم السامعة فـلا يصل الى قلوبهم من جهتها ادراك كما أطلق الشاعر : البطن والمراد البطون ، والمراد من قول الشاعر اقتنعوا بالقليل من الطعام تعفـوا عن تناول الحرام .

---

(٣) تمام البيت : « فان زمانكم زمن خميص » .
(٤) الكشـاف ١/١٦٤ .

وقد اشترط الزمخشرى لصحة هذا الاستعمال شرطا يجب مراعاته وهو أمن اللبس كما فى سمعهم وبطنهم فلا يخفى أن لكل واحد سمعا وبطنا بخلاف الثوب والفرس فلا يؤمن معه اللبس اذا استعمل الواحد وأريـد الجمع ومن ثم لابد من النص على الجمع اذا أراد المتكلم استعماله فيقال : أثوابهم وأفراسهم •

وذكر الزمخشرى رأيا آخر فى سر افراد السمع فقال : ولك أن تقول السمع مصدر فى أصله ، والمصادر لا تجمع فلمح الأصل ، ولهذا جمع الأذن فى قوله تعالى : « وفى آذاننا وقر » لأنه اسـم لا مصدر •

وعلى الرأيين السابقين يكون المراد من السمع الآذان ، وذكـر الزمخشرى رأيا ثالثا مؤداه هو أن السمع قـد لا يكون المراد منـه الآذان ، وانما المراد منه صفة السامع وعلى هذا لابد من تقدير مضاف محذوف فيقال : وعلى حواس سمعهم •

وذهب صاحب تفسير المنار الى أن السر فى افراد السمع وجمع القلوب والأبصار هو توحد مدركات السمع ، وتعدد مدركات القلوب والأبصار حيث يقول : « والذى أراه أن العقول والأبصار تتصرف فى مدركات كثيرة فكأنها صارت بذلك كثيرة فجمعت ، أما السمع فلا يدرك الا شيئا واحدا هو الصوت ومن ثم أفرد » (٥) •

واذا أمعنا النظر فى هذه الآراء فاننا نجدها غير مسـلمة فى القياس العقلى فاذا كان السبب فى افراد السمع هو « أمن اللبس » على حد تعبير الزمخشرى ، فلماذا لم تفرد القلوب والأبصـار لهذا السبب ذاته ، فأمن اللبس قائم مع القلوب والأبصار ، واذا كان مرد

---

(٥) تفسير المنار جـ ١٤٤/١ ، ١٤٥.

هذا الافراد هو كون السمع مصدرا فى الأصل فان البصر أيضا مصدر فلماذا لم يفرد مثل السمع ؟

وما قاله صاحب تفسير المنار فيه نظر ، لأن الأصوات أو مدركات السمع تختلف وتتعدد من حيث خصائصها وتنوع مصادرها شأنها فى ذلك شأن المرئيات أو مدركات البصر •

وفى النظم القرآنى ألفاظ وردت على الجمع ولم ترد مفردة بينما نجد لفظا مرادفا لها قد ورد مفردا ولم يرد جمعا وهما لفظتا : « الرؤيا » و « الحلم » فالرؤيا وردت فى القرآن سبع مرات كلها فى الرؤيا الصادقة ولم ترد الا بصيغة المفرد ، فى قوله تعالى « وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين » (الصافات ١٠٤، ١٠٥) ورؤيا يوسف اذ قال له أبوه : « يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك » (يوسف : ٥) •

وعن رؤيا ملك مصر قوله تعالى « يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى أن كنتم للرؤيا تعبرون » وفى سياق صدق رؤيا يوسف وتحققها يقول تعالى « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هـذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا » (يوسف : ١٠٠) •

ورؤيا المصطفى عليه الصلاة والسلام فى الاسراء « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس » ورؤياه عليه الصلاة والسلام فى الفتح قال تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون » واستعمل القرآن لفظ « الأحلام » مجموعا ثلاث مرات هى فى قوله تعالى : « قالوا أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » (يوسف : ٤٤) وفى قوله تعالى : « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه

بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » (الأنبياء : ٥) فمــا السر البلاغى فى هذا الاستعمال ؟

نقول — وبالله التوفيق — ان حقيقة الأضغاث انما هى أخــلاط النبات أى حزم النبات المشتملة على أنواع كثيرة متباينة منه ، وقد استعيرت هذه اللفظة للتخاليط والأباطيل الواقعة فى الرؤيا الواحدة نقول : شبهت تخاليط الأحلام وأباطيلها الملفقات بما جمع من أخلاط النبات وحزم والجامع الاختلاط من غير تمييز بين جيد وردىء ، ثم استعملت الاضغاث فى موضع الأباطيل ، فلما كان الحلم مشتملا على هذه الأباطيل الملفقة والتخاليط المتعددة جمع الحلم على أحــلام . ومن المعلوم أن الرؤيا والحلم فى اللغة واحد .

يقول صاحب النهاية : الرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم فى النوم من الأشياء لكن غلبت الرؤيا على مــا يراه من الخير والشىء الحسن وغلب الحلم على ما يراه من الشر والشىء القبيح ، ولا شك أن الحلم فيه دلالة على الخلط والتهوش بحيث يرى النائم رؤى متعددة حسنة أو قبيحة ولا يمكنه أن يميز هذه الرؤى بعضها عن الآخر ، فمنها ما يكون حسنا ومنها مايكون قبيحــا أو شرا ، فهى مجموعة رؤى غير متجانسة ولا تناسب بينها ، ولذلك يصعب على الرائى بعد استيقاظه تذكرها فقد يتذكرها ويتمكن من جمع شــتاتها وتخاليطهــا ، وهــذا نــــادر .

وما رآه الملك رؤيا صادقة وليست أحلاما ، ولكن المــلأ ما جعلوا تلك الرؤيا التى رآها الملك فى منامه أضغاث أحلام الا لتمهيد عذرهم فى أنهم غير عالمين بها مما يدل على أن الرؤيا والحلم وان كانتا فى أصل اللغة واحدا الا أن هناك فرقا بينهما فى الاستعمال فنجــد فروقا

حقيقة بين اللفظتين تفهم من السياق ويقتضيها المقام ، وقد ألمح الى ذلك الجاحظ فى البيان والتبيين •

وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ألا ترى أن الله تبارك وتعالى — لم يذكر فى القرآن الجوع الا فى موضع العقاب أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به الا فى موضع الإنتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث(٦) •

يتضح من كلام الجاحظ أن كلام الله — عز وجل — ليس كسائر كلام البشر — وان كان من جنس كلامهم أى لغتهم التى ينطقون بها لأنه كلام العليم الخبير المحيط ببواطن الأمور وخفاياها فيضع اللفظة المناسبة فى مكانها ولو أنك حاولت أن تجهد نفسك بوضع لفظة أخرى مكانها مرادفة لها وتؤدى نفس معناها لما استطعت لأن الكلمة تفيض بالايحاءات ودقائق المعانى من خلال نظمها ، ولا نظم أدق وأجل من نظم القرآن الكريم •

هذا عن الأحلام وسر جمعها أما عن الرؤية وسر افرادها فانها لوضوحها وتناسب أحداثها فى عين الرائى لها فى المنام تتميز وتصير نسيجا واحدا وطريقا مستقيما واضحا ، لأنها من الله ، والحلم من الشيطان (٧) •

---

(٦) البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٠ •

(٧) فقد ورد فى الحديث الشريف : الرؤيا من الله والحلم من الشيطان فاذا رأى أحدكم شيئا يكرهه فلينفث عن يساره ثلاث مرات وليستعذ بالله من شرها — البخارى كتاب الطب ، باب النفث فى الرقية ومسلم كتاب الرؤيا ١١٨/٥ والترمذى كتاب الرؤيا باب اذا رأى أحدكم فى المنام ما يكرهه ٣١/١١ •

ولا شك أن طرق الشيطان متعددة قال تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

وجار الله الزمخشرى ذكر وجها آخر فى سر جمع الحلم على أحلام فيقول : فان قلت : ما هو الا حلم واحد فلم قالوا أضغاث أحلام فجمعوا ؟ قلت : هو كما تقول : فلان يركب الخيل ويلبس عمائم الخز لمن لا يركب الا فرسا واحدا وما له الا عمامة فردة تزيدا فى الوصف فهؤلاء أيضا تزيدوا فى وصف الحلم بالبطلان فجعلوه أضغاث أحلام ، ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا غيرها .

ونقول : لا داعى لتكلف ذكر هذا الوجه لأن الجمع وسر التعبير به واضح من خلال اجراء استعارة الأضغاث لأباطيل المنامات وتخاليطها وهى متحققة فى رؤيا واحدة بحسب أنها متركبة من أشياء كل واحد منها حلم فكانت أحلاما .

وقد يقع فى النظم الكلام مفردا فى اللفظ ومعناه جمع ، وهذا كثير ، لأنه قصد به الجنس أو قصد به الجزاء مثل قوله تعالى : «والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون » (٨) ولذلك روعى معناه وجمع فى قوله تعالى « أولئك هم المتقون » كما روعى معنى « من » أيضا فى الآية السابقة فى قوله تعالى : « فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق اذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين » فقد روعى معنى « من » فى قوله « للكافرين » فان الكافرين ظاهر واقع موقع المضمر لتسجيل صفة الكفر عليهم اذ الأصل أليس فى جهنم مثوى لهم .

وقيل : المراد بالذى فى قوله تعالى : « والذى جاء بالصدق » هو

---

(٨) الزمر آية ٣٣ .

واحد بعينه وهو محمد ﷺ ولكن لما كان أتباعه من الصحابة والتابعين قد صدقوا ما جاء به ﷺ من عند الله وآمنوا به أعتبر ذلك فجمع فقال « أولئك هم المتقون » كقوله : « ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون » أراد موسى وقومه ولذلك جمع فقال « لعلهم يهتدون » اى قومه ، لأنهم المطلوب منهم الهداية ، وأما موسى عليه السلام فمهتد ثابت على الهداية ، وقد يكون موسى داخلا معهم فى رجاء الهداية أى المزيد منها والمداومة عليها ، أو من باب التهييج والالهاب .

وقد يكون المراد من قوله : « والذى جاء بالصدق وصدق به » الرسول ﷺ ويشترك معه كل الرسل قبله فى هذه الصفة ، كما يشركه فيها كل من دعا الى هذا الصدق وهو مقتنع به مؤمن بأنه الحق يشارك قلبه لسانه فيما يدعو اليه ، وهذا معنى عام وشامل لمسيرة البشرية من مبدئها الى منتهاها ، ولذلك كان هذا الوجه أولى بالترجيح ، ويتوسع المولى عز وجل فى بيان ما أعده للمتقين من جزاء فيقول : « لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين » وهو تعبير جامع يشمل كل ما يخطر للنفس المؤمنة من رغائب ، ويقرر أن هذا لهم عند ربهم ، فهو حقهم الذى لا يخيب ولا يضيع جزاء لهم على احسانهم (٩) .

ومنه قوله تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى اذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » (١٠) .

فضميرا النصب فى قوله تعالى : « وانهم ليصدونهم » عائدان على « من » من حيث معناها راعى لفظها أولا فأفرد فى « له » وراعى

---

(٩) فى ظلال القرآن ٥/٣٠٥٠ ، ٣٠٥١ .

(١٠) سورة الزخرف آية ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .

معناها فجمع فى قوله « وانهم ليصدونهم » ثم رجع الى اللفظ ثانية فأفرد فى قوله : « حتى اذا جاءنا قال » .

وفى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم » قرأ عاصم « المجالس » جمعة باعتبار أن لكل واحد منهم مجلسا ، والباقون بالافراد اذ المراد مجلس الرسول ﷺ ، ولا تعارض بين القراءتين فهو مجلس واحد باعتبار ومجالس باعتبار آخر ، فعلى قراءة الافراد وأن المراد به مجلس رسول الله ﷺ فان الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتضامون فيه تنافسا على القرب منه وحرصا على استماع كلامه وكان بعضهم يكره أن يضيق عليه فى المكان .

وقد رأى ﷺ الكراهة من الضيق على وجوههم فأمرهم ﷺ أن يوسعوا دائرة المجلس ويفسح بعضهم لبعض ، وقراءة الجمع باعتبار تعدد الجالسين فان لكل جالس مجلسا على حدة أى موضع جلوس .

ويؤيدها ما جاء فى سبب النزول فقد ورد أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يجلس يوم الجمعة فى الصفة وفى المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا الى المجالس فقاموا حيال النبى ﷺ ينتظرون أن يوسع لهم فعرف رسول الله ﷺ ما يحملهم على القيام وشق ذلك على الرسول فقال لمن حوله من غير أهل بدر قم يا فلان ثم يا فلان فلم يزل يقيم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه ، وشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرفت الكراهية فى وجوههم ، وطعن المنافقون فى ذلك ، وقالوا : ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله ما رأيناه قد عدل على هؤلاء ، ان قوما أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه فنزلت هذه الآية يوم الجمعة .

وهذه الرواية — ان صحت — لا تتنافى مع الأحاديث الأخرى التى تنهى أن يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيـه فلعل هـذا الصنيع من رسول الله كان له اعتباره فى هذا المقام ، وهو يتفق مع ما قرره ﷺ فى قوله : « أنزلوا الناس منازلهم » فان أهل بدر كانت لهم منزلة خاصة عند رسول الله ﷺ وهو القائل : « لعل الله اطلع الى أهل بدر فقال : اعلموا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ، أو قد غفرت لكم » .

والقراءات القرآنية المتواترة تلتقى حول معنى واحد ففى قوله تعالى « والذين هم بشهادتهم قائمون » (١١) قرأ حفص بشهاداتهم جمعا والباقون بالافراد فالجمع لإرادة تعدد أنواع الشهادة ، والافراد لارادة الجنس وهو تحته أنواع .

ومن وصف المفرد بالجمع لسر بلاغى قوله تعالى : « انا خلقنـا الإنسان من نطفة أمشاج »(١٢) فأمشاج جمع وهو صفة للنطفة لأنها فى معنى الجمع كقوله تعالى : « رفرف خضر » وكقولهم «برمة أعشار» و « برد أكباش » فقد جعل كل جزء من النطفة نطفة وهذا الاعتبـار هو الذى سوغ وصفها بالجمع .

وقد يتقدم ذكر لفظ عام يصلح للافراد والمثنى والجمع كلفظ « من » الموصولة فلفظها مفرد ، ولكنها تحتمل معنى الجمع أيضا ثم يأتى النظم القرآنى بعد ذلك فيحمل بعضه على اللفظ ويحمل بعضـه الآخر على المعنى ، كما فى قوله تعالى : « ومن يهد الله فهو المهتد ومن

---

(١١) سورة المعارج الآية ٣٣ .

(١٢) سورة الانسان الآية ٢ .

يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة عميا وبكما وصـــما » (١٣) .

فحمل على لفظ « من » في قوله تعالى : « فهو المهتد » فأفرد ، وحمل على معنى « من » الثانية في قوله : « ومن يضلل فلن تجد لهم » فجمع . ووجه المناسبة في ذلك — والله أعلم — أنه لما كان الهدى شيئا واحدا غير متشعب السبل ناسبه التوحيد ، ولما كان الضلال له طرق نحو : « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ناسب الجمع الجمع ، وهذا الحمل الثاني مما حمل فيه على المعنى وان لم يتقـــدمه حمل على اللفظ ومثله قوله تعالى : « ومنهم من يستمعون اليك » ، ويمكن أن يكون الذى سوغ هذا وحسنه هنا كونه تقدمه حمل عـــلى اللفظ ، وان كان فى جملة أخرى غير جملته .

وفى قوله تعالى : « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » نجد الافراد فى قوله تعالى : « صفا » وقد عاد عليه الضمير بالجمع لمراعاة المعنى لأنه جمع فى المعنى ، وانما آثر النظم القرآنى الافراد دون الجمع لأن المجاهدين مهما كثروا فانهم يجب عليهم أن يكونوا قوة واحدة على قلب رجل واحد وأن يكونـــوا متآزرين متعاونين كالبناء المتماسك الذى تجتمع لبناته ويشد بعضهـــا بعضا ففيه دلالة على وحدة الصف ووحدة الهدف .

وفى قوله تعالى : « يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنـــات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك » .

---

(١٣) سورة الاسراء الآية ٩٧

ولا شك أن طرق الشيطان متعددة قال تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

وجار الله الزمخشرى ذكر وجها آخر فى سر جمع الحلم على أحلام فيقول : فان قلت : ما هو الا حلم واحد فلم قالوا أضغاث أحلام فجمعوا ؟ قلت : هو كما تقول : فلان يركب الخيل ويلبس عمائم الخز لمن لا يركب الا فرسا واحدا وما له الا عمامة فردة تزيدا فى الوصف فهؤلاء أيضا تزيدوا فى وصف الحلم بالبطلان فجعلوه أضغاث أحلام ، ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا غيرها .

ونقول : لا داعى لتكلف ذكر هذا الوجه لأن الجمع وسر التعبير به واضح من خلال اجراء استعارة الأضغاث لأباطيل المنامات وتخاليطها وهى متحققة فى رؤيا واحدة بحسب أنها متركبة من أشياء كل واحد منها حلم فكانت أحلاما .

وقد يقع فى النظم الكلام مفردا فى اللفظ ومعناه جمع ، وهذا كثير ، لأنه قصد به الجنس أو قصد به الجزاء مثل قوله تعالى : «والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون » (٨) ولذلك روعى معناه وجمع فى قوله تعالى « أولئك هم المتقون » كما روعى معنى « من » أيضا فى الآية السابقة فى قوله تعالى : « فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق اذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين » فقد روعى معنى « من » فى قوله « للكافرين » فان الكافرين ظاهر واقع موقع المضمر لتسجيل صفة الكفر عليهم اذ الأصل أليس فى جهنم مثوى لهم .

وقيل : المراد بالذى فى قوله تعالى : « والذى جاء بالصدق » هو

---

(٨) الزمر آية ٣٣ .

نلاحظ فى هذه الآية افراد عمك وخالك وجمع خالات وعمات ، ما السر فى هذه المغايرة ؟ السر ـ والله أعلم أن لفظ العم والخال بالتذكير اسم جنس وهو فى معنى الجمع بدليل الاستثناء منه فى قوله تعالى : « والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. » أما العمة والخالة فليستا اسم جنس ولذلك جمعا .

ويقول الشيخ زكريا الأنصارى : أفرد العم والخال وجمع العمات والخالات ، لأن العم والخال بوزن مصدرين وهما الضم والميل والمصدر يستوى فيه المفرد والجمع بخلاف العمة والخالة ، ولا يرد على ذلك جمع العم والخال فى قوله تعالى فى سورة النور « أو بيوت أعمامكم أو بيوت أخوالكم » ، لأنهما ليسا مصدرين حقيقة فاعتبر هنا حقيقتهما فأفردا وثم شبههما فجمعا (١٤) .

والنظم القرآنى يأتى بالآية مفردة فى سياق ويأتى بها جمعا فى سياق آخر لاختلاف المقامين ففى قوله تعالى فى سورة سبأ « ان فى ذلك لآية لكل عبد منيب » أفرد لفظ « آية » لوقوعها فى سياق الحديث عن بعث الموتى واحيائهم من قبورهم ولا شك أن القادر على هذا هو الله ـ سبحانه ـ وحده فناسب ذلك التوحيد وهو الاتيان بلفظ الآية مفردة وجمعها فى نفس السورة فى آية أخرى فى قوله تعالى : « ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » لأن هذه الآية وردت فى سياق الحديث عن قوم سبأ وهم قد تفرقوا فى البلاد ومزقوا كل ممزق كما أخبر عنهم القرآن فاسم الاشارة فى « ذلك » يعود الى قبيلة سبأ التى تفرقت حتى ضرب بهم المثل فقيل « تفرقوا أيدى سبأ » فلما صارت هذه القبيلة فرقا شتى ناسب الجمع .

---

(١٤) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن ص ٤٦٣ .

يدل على الجمع لأن الواحد بما هو واحد لا يمكن أن يكون على أرجائها فى وقت واحد بل فى أوقات ، والمراد — والله أعلم — أن الملائكة على أرجائها لا أنه ملك واحد يتنقل على أرجائها فى أوقات (١٥) .

وفى قوله تعالى : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون »(١٦) . قرأ ابن كثير هنا وفى المعارج « لأمانتهم » بالافراد ، والباقون وهو الذى عليه الرسم العثمانى بالجمع ، وهما فى المعنى واحد ، لأن القراءات السبع المتواترة تلتقى دائما حول معنى واحد ، ولكل قراءة لها وجهتها فمن قرأ بالافراد راعى كلمة العهد فاحتج لقراءته بافراد العهد ، ومن قرأ بالجمع راعى اجماع القراء على جمع الأمانة فى قوله تعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » (١٧) .

ولكن المعنى فى القراءتين واحد لأن قراءة الافراد يراد منها الجنس وهو يشمل أفراد الأمانة كلها ، وقراءة الجمع يراد منها الجمع الذى اشتمل عليه الجنس ، ولكنه يزيد عليه بافادة تنوع الأمانة وجمعها شامل لكل أنواعها ولذلك كان قراءة كل القراء ما عدا ابن كثير ونافع ، وأول هذه الأمانات أمانة الفطرة المستقرة فى قاع النفس البشرية ، والتى يحجبها أحيانا عن الظهور فى سلوك المؤمن عوامل متعددة من داخل النفس وخارجها ، فمن داخلها النفس والهوى ، ومن خارجها الشيطان واغوائه واغراءات الحياة الدنيا وفتنتها ، والنص فى هذه الآية يشمل كل أمانة وكل عهد ، ويصف المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون فهى صفة ثابتة لهم ودائمة فى كل حين استفيد هذا المعنى من

---

(١٥) الدر المصون ٦/٣٦٤ .
(١٦) سورة المؤمنون : الآية ٨ .
(١٧) سورة النساء آية ٥٨ .

الجملة الاسمية التي جاء الخبر فيها اسم فاعل تحمل صفة الدوام والثبات .

ونلاحظ أيضا فى هذه السورة أنه كرر ذكر الصلاة ، وهو فى الظاهر تكرار وفى الحقيقة ليس بتكرار ، لأنه ذكر الصلاة أولا بلفظ الافراد فى قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » وذلك لافادة تحقق الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت فرضا أو سنة وفى أي حالة كانت يؤديها المصلي بمفرده أو في جماعة فالمراد من الافراد جنس الصلاة ، وذكرها ثانيا بصيغة الجمع لإفادة المحافظة على أعدادها وهي الصلوات الخمس والوتر والسنن الراتبة ، فلا يفوتونها كسلا ، ولا يضيعونها اهمالا ، ولا يقصرون في اقامتها كما ينبغى أن تقام ، فأفردت أولا لافادة المحافظة على كيفيتها بآدائها كاملة بأركانها وخشوعها والاخلاص فيها والوسائل المؤدية اليها من الطهارة بالوضوء والغسل وغير ذلك وجمعت آخرا لافادة المحافظة عليها من حيث العدد والكم وعدم فوات شىء منها قال تعالى « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » فلا يؤخرها المؤمن عن وقتها الذى حدد لها .

وهنا يتبادر الى الذهن سؤال وهو لماذا عدل فى المحافظة على الصلاة عن اسم الفاعل الى الفعل فقال « يحافظون » ولم يقل « حافظون » .

والجواب — والله أعلم — هو أن المحافظة عليها من حيث أعدادها يتجدد وقتا بعد وقت حسب الأوقات التى شرع الله فيها الصلاة . وأما الخشوع فيها فيجب أن يكون صفة للمؤمن ثابتة ومستقرة ودائمة طوال الصلاة ولذلك قال « والذين هم فى صلاتهم خاشعون » أي فى آدائهم للصلاة خاشعون .

وفي قوله تعالى : « وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور »(١٨) أفرد الأعمى والبصير وقابلهما بجمع الظلمات وافراد النور ، والسر في افراد الأعمي والبصير ان ارادة مقابلة الجنس بالجنس ، اذ قد يوجد في أفراد العميان ما يساوى بعض أفراد البصراء كأعمي ذكي له بصيرة يساوي بصيرا بليدا فالتفاوت بين الجنسين مقطوع به لا بين الأفراد .

أما السر في جمع الظلمات وافراد النور فلما ذكرنا سابقا من أنه جمع الظلمات لأن المراد منها الكفر والضلال ، وطرقهما كثيرة ومتشعبة ووحد النور لأنه عبارة عن التوحيد وهو واحد والذي يتبع منهج التوحيد يسلك طريقا واحدا مستقيما قال تعالى : « وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» (١٩). فالتفاوت بين كل فرد من أفراد الظلمة وبين هذا الفرد الواحد ، والمعنى الظلمات كلها لا تجد فيها ما يساوى هذا الواحد .

وقيل : انه ينبغي آن يقال ان هذا الجمع لا يساوى هذا الواحد فنعلم انتفاء مساواة فرد منه لهذا الواحد بطريق اولى ، وانما جمع الأحياء والأموات ، لأن التفاوت بينهما اكثر اذ ما من ميت يساري في الادراك حيا ، فذكر أن الاحياء لا يساوون الأموات سواء قوبلت الجنس بالجنس أم الفرد بالفرد (٢٠) .

وقد يتأتى الخطاب بالافراد أولا ثم يتحول منه الى الجمع ثانيا كما في قوله تعالى : « وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا » (٢١) الخطاب للنبى ﷺ

---

(١٨) فاطر ١٩ ، ٢٠ .
(١٩) الانعام ١٥٣ .
(٢٠) الدر المصون ٥/٤٦٥ .
(٢١) سورة يونس ٦١ .

ﷺ — وانما جمع فى الفعل الثالث ليدل على أن الأمة داخلون مع النبى ﷺ وحده ، وانما جمع تفخيما له وتعظيما كما فى قوله تعالى : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم » (٢٢) ولا شك أن الخطاب أولا بالإفراد مختص برسول الله ﷺ الا أن الأمة داخلون فيه ومرادون منه ، لأنه من المعلوم أنه اذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين فى ذلك الخطاب والدليل عليه قوله تعالى : « يا أيها النبى اذا طلقتم النساء» والدليل عليه أيضا هو تعميم الكل بالخطاب الثالث فى قوله تعـالى : « ولا تعملون من عمل » ..

وقد يوصف جمع المؤنث بالواحدة ، وهذا جائز ، ولكن جوازه قد يكون مستحسنا بل قـد ينتقل من حيز الجواز الى حيز الوجـوب لمراعاة النظم والايقاع الصوتى فى الآية والذى جرت عليه السورة كما فى قوله تعالى : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ومثله فى سورة طه « لنريك من آياتنا الكبرى » .

والقراءات القرآنية لها أثر كبير فى ثراء المعنى الناتج عن قراءة الجمع وقراءة الافراد فى الكلمة الواحدة كما فى قوله تعالى : « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب » (٢٤) قرأ الأخوان وحفص للكتب جمعا ، والباقون « للكتاب » مفردا والرسم واحد فالافراد يراد به الجنس والجمع للدلالة على الاختلاف أى اختلاف الأنواع المندرجة تحت هذا الجنس أى أن السماء تطوى كما يطوى خازن الصحـائف صحائفه ولكل انسان صحيفة تختلف عن الآخرين قال تعالى : « وكل

---

(٢٢) سورة البقرة ٧٥ .
(٢٣) سورة النجم آية ١٨ .
(٢٤) سورة الانبياء ١٠٤ .

الانسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا » (٢٥) ٠

ومن ايثار صيغة الجمع على صيغة الافراد لفظة « الحمير » فى قوله تعالى : « ان أنكر الاصوات لصوت الحمير » (٢٦) ويلاحظ انه وحد لفظ الصوت وجمع « الحمير » يجيب الزمخشرى على سر الافراد فيقول : فان قلت : لم وحد صوت الحمير ولم يجمع مع انه تقدمه جمع ؟ قلت : ليس المراد ان يذكر صوت كل واحد من احاد هذا الجنس حتى يجمع ، وانما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق له صوت ، وأنكر اصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس فوجب توحيده (٢٧)٠

ويجيب عن سر جمع الحمير الشيخ الطاهر بن عاشور فى تفسيره فيقول : وانما جمع الحمير فى نظم القرآن مع ان « صوت » مفردا ولم يقل « الحمار » لأن المعرف بلام الجنس يستوى فيه مفرده وجمعه ولذلك يقال : ان لام الجنس اذا دخلت على جمع أبطلت منه معنى الجمعية ، وانما اوثر لفظ الجمع لأن كلمة « الحمير » أسعد بالفواصل لأن من محاسن الفواصل والاسجاع أن تجرى على احكام القوافى ، والقافية المؤسسة بالواو أو الياء لا يجوز أن يرد معها ألف تاسيس. فان الفواصل المتقدمة من قوله تعالى « ولقد آتينا لقمان الحكمة » هى حميد — عظيم — المصير — خبير — الأمور — فخور — الحمير ، وفواصل القرآن تعتمد كثيرا على الحركات والمدود والصيغ دون تماثل الحروف ، وبذلك تخالف قوافى القصائد (٢٨) ٠

وفى قوله تعالى : « واذا غشيهم موج كالظلل »(٢٩) نجد افراد

---

(٢٥) سورة الاسراء آية ١٣ ٠
(٢٦) لقمان ١٩ ٠
(٢٧) الكشاف جـ ٣ ٠
(٢٨) التحرير والتنوير ٠
(٢٩) سورة لقمان الآية ٣٢ ٠

الموج وجمع الظلل اشارة الى عظم الموج يعنى الموج الواحد العظيم يرى فيه طلوع ونزول وتتابع فى الجرية الواحدة حتى ليخيل للرائى أنه موج واحد ينتقل من مكان الى آخر حتى يصل الى الشاطىء وهى فى تتابعه يكون كالجبال المتلاصقة .

يتنوع النظم القرآنى فيأتى أولا بصيغة الجمع فى قوله تعالى : « اذهب انت واخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى » ثم يعدل عنه الى الافراد فى قوله تعالى « قد جئناك بآية من ربك » مع أن الله تعالى لم يذكر لموسى عليه السلام فى هذا الموضع وفى سائر المواضع الا آيتين هما العصا واليد وعبر عنهما بالمثنى فى سورة القصص فى قوله تعالى : « فذانك برهانان من ربك الى فرعون » فكيف الجمع بين هذه الصيغ العددية ؟

والجواب عن ذلك هو أن العصا واليد وان كانتا آيتين على الاجمال فهما آيات متعددة عند التفصيل ، فان انقلاب العصا حيوانا آية ثم انها كانت صغيرة تهتز كأنها جان ثم صـــارت كبيرة آيــة أخـرى ، وصيرورتها ثعبانا آية أخرى ثم انقلابها خشبة كما كانت آية أخرى وكذلك اليد بياضها آية ، وشعاعها آية أخرى ، وزوالها آية أخـرى فهذا هو سر الجمع فى هذا السياق الذى يقصد فيه التفصيل وتعدد الآيـــات .

أما افرادها فى الآية الأخرى فان القصد لم يتوجه الى العدد وانما القصد الى الجنس يقول الزمخشرى : وانما وحد آية ، لم تثن ومعه آيتان لأن المراد فى هذا الموضع هو تثبيت الدعوى ببرهانها فكأنه قال : قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على مـا ادعينـاه من الرسالة ، بدليل قوله تعـالى « قد جئتكم ببينة من ربكم » وقوله تعالى « فأت بآية ان كنت من الصادقين » . وفى سورة القصص كان القصد الى الآيتين على وجه الاجمال ، فذكر فى كل موضع ما يناسبه .

الفصل التاسع

بين التثنية والجمع

فى قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » فجاء مثنى أولا ثم عدل عن التثنية الى الجمع فما سر التعبير عن الجماعة بالتثنية وسر العدول عنها الى الجمع ؟

يقول الزمخشرى : ... الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق فكأنه قيل : هذان فوجان أو فريقان يختصمان ، وقوله : هذان للفظ واختصموا للمعنى كقوله : « ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا ... » (١) .

ولو قيل : هؤلاء خصمان أو اختصما جاز — يراد المؤمنون والكافرون فالزمخشرى لم يبين السر البلاغى لهذه الظاهرة وانما حاول توجيهها توجيها لغويا من باب الحمل على المعنى بعد الحمل على اللفظ ولها نظائر كثيرة فى القرآن الكريم ، واذا ما أردنا أن ندلى بدلونا فى بيان السر البلاغى للتثنية والجمع فى هذه الآية فاننا نقول : ان السياق دائما هو الذى نلمح من خلاله السر البلاغى فقد سبقت هذه الآية بآية عددت فيها طوائف الأديان أو أصحاب الملل المختلفة وهى قوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شىء شهيد » فعلى الرغم من تعدد هذه الطوائف الا أنهم فى حقيقة الأمر فريقان فريق

---

(١) الكشاف ٣/٩

عرف الحق فاهتدى اليه وفريق آخر ضل عن الطريق المستقيم فتخبط فى الباطل « فضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » فالخصومة تكون يوم القيامة بين هذين الفريقين بين المؤمنين والكافرين ، وجمع بعد ذلك باعتبار تعدد هذه الطوائف وتباينها مراعاة لحالهم فى الدنيا وما هم عليه من اختلاف العقائد وتباين الاتجاهات وتعدد التسميات واختلاف المذاهب .

ومن العدول عن الجمع الى التثنية فى قوله تعالى : « اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض » فقد تقدم الجمع فى قوله : دخلوا — منهم — قالوا ، ثم عدل الى التثنية فى قوله : خصمان وقد سبق قبل ذلك تصدير هذه القصة باستفهام مشوق الى معرفة أحداث هذه القصة ، ومنبها على مكانتها ليكون ذلك أدعى الى الاصغاء اليها والاعتبار بها فى قوله تعالى : « وهل أتاك نبؤ الخصم اذ تسوروا المحراب » فالخصم هنا مصدر خصمته أخصمه خصما ويسمى به الاثنان والجمع ، وهنا مراد منه الاثنان كما ورد فى كثير من التفاسير أنهما ملكان يقال : هما خصم ، وهم خصم .

فالملاحظ أن الخصم المفرد قد استعمل وأريد به جماعة المتخاصمين أو أريد به المثنى لما ورد فى بعض التفاسير أن الخصومة كانت بين شخصين اثنين أو أن الخصومة كانت بين اثنين فى الأساس ومعهما صحب وأعوان وشهود يساند كل فريق منهما صاحبه فى خصومته ضد الآخر فهما اذن فريقان خصمان ويبدو أن الخصمين قد تسوروا على داود المحراب فى خلوته للعبادة .

لما ورد عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء يوما يخلو فيه للعبادة ويوما للقضاء »

ويوما للاشتغال بخواص أموره ، ويوما للوعظ والتذكير ، ولما كان داود عليه السلام حريصا على تمام الاخلاص فى العبادة فانه قد تفرغ تماما من كل الشواغل الدنيوية ليتجه بقلبه وكيانه الى الله تعالى وحده فلا يصرفه عن عبادته صارف ما •

ولما حدث هذا الأمر وهو تسور الخصم المحراب على داود عليه السلام فزع منهم لا لأنهم تسوروا عليه المحراب فهذا أمر هين لأنه يثق فى كلاءة الله له وحفظه وانما الخوف والفزع الذى انتابه كان من أجل فوات وقت العبادة وانصرافه عنها للفصل بين المتخاصمين فأراد الخصم أن يقلل من الوقت الذى يضيع على داود عليه السلام فى الفصل فى هذه الخصومة فأفردها أى جعلها خصومة واحدة ومن هنا كان السر فى ايثار العدول عن الافراد أو الجمع الى التثنية لتطمينه الى آن هذه الخصومة لا تضيع عليه وقتا كبيرا من يومه الذى يخلو فيه للعبادة ، فكأنهم بذلك يبادرونه بالقول : لا تخف من ضياع يومك فهذه الجموع التى تراها لم تأت الا من أجل خصومة واحدة • ولو أتى بالافراد أو الجمع لم يفد هذا المعنى •

ومن مواطن التحول عن التثنية الى الجمع ثم منه الى التثنية مرة أخرى قول الحق تبارك وتعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » (الآية : ٩ الحجرات) •

ففى تلك الآية الكريمة أتى بالتثنية فى قوله : طائفتان ثم تحول عنها الى الجمع فى قوله تعالى : « اقتتلوا » ثم هنا تحول آخر من الجمع الى التثنية فى قوله « بينهما » ما السر — اذن — فى هذين التحولين — انهما أى الطائفتان قبل القتال كانت كل طائفة من الطائفتين كأنها رجل واحد لتوحد الكلمة واتفاق الرأى وكذلك بعد الصلح تلين النفوس وتنقاد لداعى الحق فتتوحد صفوفها وينتظم بنيانها فتكون

متماسكة متآزرة متآلفة كأنها نفس واحدة أما عند القتال فتتشتت الآراء وتعظم الفتنة فيؤدى ذلك الى اختلاف القلوب ونوازع النفوس فينقسم الصف الواحد الى صفوف متنازعة فى حال الاقتتال .

هذا الذى ذكرته انما هو ما يفهم من كلام الفخر الرازى فى تفسيره اذ يقول : « عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة ، وكل أحد برأسه يكون فاعلا فعلا فقال : « اقتتلوا » وعند العود الى الصلح تتفق كلمة كل طائفة ، والا لم يكن يتحقق الصلح فقال « بينهما » لكون الطائفتين حينئذ كنفسين » (٢) .

ومن مواطن العدول عن التثنية الى الجمع ومن جمع المؤنث الملائم لما لا يعقل الى جمع المذكر وذلك فى قوله تعالى « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » فقد عدل عن التثنية فى قوله : « ائتيا » وقوله : « قالتا » الى الجمع فى قوله : طائعين ثم ان هذا الجمع معدول به عن جمع المؤنث الملائم لأن يكون صفة لما لا يعقل وهن السموات والأرض .

يقول الزمخشرى فى تفسيره لتلك الآية : « فان قلت : هلا قيل : طائعتين على اللفظ أو طائعات على المعنى لأنها سموات وأرضون ؟ قلت لما جعلن مخاطبات ومجيبات ، ووصفن بالطوع والكره قيل : طائعين (٣) . يعنى أن السماء والأرض لما وجه اليهما الأمر من الخالق جل وعلا جعلت كأنها عاقلة تعى ما يقال لها وما يطلب منها فنزلت منزلة العقلاء ومن ثم عدل عن جمع المؤنث الملائم لما لا يعقل الى جمع المذكر وفى ذلك تعريض بهؤلاء الذين ضلت عقولهم فتردت

---

(٢) التفسير الكبير ٣٨٢/١٤ .
(٣) الكشاف ٣٨٥/٣ .

يهم سفاهتهم فى هوة الشرك والغواية ، فكأن الآية الكريمة بتضمنها هذا العدول فى ذلك السياق تجسيد للمفـــارقة الواضـــحة بين تلك الجمادات التى لا تملك الا الطاعة والإنقياد المطلق لجبروت الخالق عز وجل ، وبين هؤلاء الملاحدة من البشر العقلاء الذين تعطلت عقولهم فانغمسوا فى مباءة المعصية بين اشراك به واقع واعراض عن تذكيرهم بآياته ودلائل قدرته متوقع (٤) .

وفى قوله تعالى « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقـــدر على شىء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون » ضرب الله مثلا للسيد المالك الرازق وللمملوك العاجز الذى لا يملك ولا يكسب وهو مثل مأخوذ من واقعهم فقـــد كان لهم عبيـــد مملوكون لا يملكون شيئا ولا يقـــدرون على شىء وهم لا يســـوون بين العبـــد المملوك العاجز والسيد المالك المتصرف فكيف يسوون بين سيد العباد ومالكهم وبين أحد أو شىء مما خلق ، وكل مخلوقاته له عبيد ، وهنـــا سؤالان : الأول : ما فائدة وصف المملوك بأنه لا يقدر على شىء ؟ مع أن المملوك لا يصح له ملك عند جمهور الفقهاء ؟

أجاب الزمخشرى عن هذا بقوله «فليجعل غير مكاتب ولا مأذون له لأنهما يقدران على التصرف ومعنى هذا أن فائدة الوصف هنا للتخصيص والاحتراز أى تخصيص المملوك الذى لا قدرة له عـــلى التصرف ليحترز به عن دخول المملوك المكاتب والمأذون له من قبل سيده فى التصرف ، ولم يرتض ابن المنير ما قاله الزمخشرى وبينا أنه بعيد عن فصاحة القرآن اذ هو يتفق مع مذهب الامام مالك — رضى الله عنه — فى صحة ملك العبد المملوك .

---

(٤) اسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية للدكتور / حسن طبل ص٥٠

بين الجمع والتثنية :

في قوله تعالى يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان » (٥) راعى المعنى فجمع فى قوله : « استطعتم » « أن تنفذوا » «فانفذوا» « لا تنفذون » ثم روعى اللفظ ، أى لفظ التثنية فى قوله بعد : « يرسل عليكما » ما السر فى مراعاة المعنى أولا ؟ قيل ان كل واحد من الجن والانس تحته أفراد كثيرة لأنه اسم جنس، كقوله تعالى «وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا »٠

ولكننا نقول : ان ايثار الجمع على المثنى فى الآية يقتضيه مقام التحدى والتعجيز فلو تمالأ كل أفراد الانس وكل أفراد الجن وتعاضدوا على التمكن من النفوذ من أقطار السموات والأرض لا يستطيعون ، فالأمر فى « فانفذوا » للتعجيز ، أما مراعاة اللفظ بعد ذلك بالاتيان بالمثنى فى قوله تعالى : « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » (٦) .

فلاقتضاء المقام الاتيان به ، لأنه من المعلوم أن الجن خلقوا من النار بخلاف الانس فان الله خلقهم من تراب فطبيعة كل منهما تختلف عن الآخر ، والنار التى أعدها الله لاحراق الجن لا شك أنها نار تؤثر وتؤلم من خلقوا منها فربما تكون النار التى أعدها الله للجن خلاف النار التى أعدها الله للانس لاختلاف طبيعة كل منهما ومن ثم أتى بالمثنى للدلالة على استقلال كل جنس بنار محرقة ، تكون ملائمة لطبيعته ، ومعدة لعذابه ، أى يرسل على كل جنس نارا ونحاسا معدة

---

(٥) سورة الرحمن الآية ٣٣ ٠

(٦) سورة الرحمن الآية ٣٥ ٠

لعذابه ، أو قد يكون السر فى التثنية ما قاله الرازى « لبيان الارسال على النوعين لا على كل واحد منهما ، لأن جميع الانس والجن لا يرسل عليهم العذاب والنار ، فهو يرسل على النوعين ويتخلص منه بعض منهما بفضل الله ، ولا يخرج أحد من الأقطار أصلا » (٧) .

هذا بالاضافة الى توافقه مع الجملة التى كررت لتعداد النعم والآلاء وهى قوله تعـالى : « فبأى آلاء ربكمـا تكـذبان » فاتصلت التثنية بالتثنية (٨) .

وفى قوله تعالى « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان » قالوا الضمير فى « فيهن » يعود على الجنات مع أن المتقدم جنتان وقد وصفتا بالمثنى فى قوله تعالى : « ذواتا أفنان » وقوله : « فيهما عينان تجريان » وقوله : « فيهما من كل فاكهة زوجان » فمـا السر — اذن — فى ترك التثنية واثبات الجمع ؟ قيل : ان أصل الجمع اثنان على قول ، وقيل : انه عائد على الجنان المدلول عليها بالجنتين لأن الجنة لها اعتبارات ثلاثة كما يقول الفخر الرازى :

أحدها : اتصال أشجارها وعدم وقوع الفيافى والمهامه فيهـا والأراضى الغامرة ومن هذا الوجه كأنها جنة واحدة لا يفصلها فاصل .

ثانيها : اشتمالها على النوعين كأنها جنتان .

وثالثها : لسعتها وكثرة أشجارها وأماكنها وأنهارها ومساكنها كأنها جنات فهى من وجه جنة واحدة ومن وجه جنتان ومن وجه جنات .

فالضمير فى قوله « فيهن » يشير الى الوجه الثالث ، ويشير أيضا

(٧) التفسير الكبير ١٥/١٩٨ .
(٨) سـورة الرحمن الآية ٥٦ .

الى كثرة الأماكن فى الجنة التى هى مساكن الحور العين وتفرقها فلكل واحدة منهن ما يليق بها من المكان الواسع فتصير الجنة التى هى واحدة من حيث الاتصال كثيرة من حيث تفرّق المساكن فيها (٩) ٠

ونقل القرطبى عن الزجاج قولا فى سر جمع « فيهن » وهو أنه سبحانه عنى الجنتين وما أعد لصاحبهما من النعيم وقيل « فيهن » يعود على الفرش التى بطائنها من استبرق أى فى هذه الفرش قاصرات الطرف أى نساء قاصرات الطرف قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يطمحن ببصرهن الى غيرهم من الأزواج(١٠) ٠

والذى أراه أن الضمير فى « فيهن » يعود على الجنتين باعتبار درجات أصحابهما ومنازلهم فيهما وهى كثيرة فان لكل فرد درجته ومنزله المعد له جزاء وفاقا على قدر عمله ٠ والمقام يقتضى هذا المعنى، اذ أن الشيئين العظيمين لما لهما من جلالة القدر وعظيم الأثر قد يقصد المبالغة فيهما بجعل كل واحد منهما عدة أشياء ٠

وعند الزمخشرى : ان الضمير فى قوله : « فيهن » يعود على الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى (١١) وهو قول جيد ٠

وفى قوله تعالى « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » نجد أن الضمير فى قوله تعالى : « كانتا » يعود على السموات والأرض بلفظ التثنية والمتقدم جمع ، ذكر الزمخشرى فى تأويل ذلك قوله : وانما قيل : كانتا دون كن ، لأن المراد جماعة

---

(٩) التفسير الكبير ٢٢/١٥ ٠

(١٠) تفسير القرطبى ٦٣٥٠/٩ ٠

(١١) الكشاف ٤٩/٤ ٠

السموات وجماعة الأرضين (١٢) ، وقيل : الضمير يعود على الجنسين أو أنه أراد الصنفين كماقال الشاعر :

ان المنية والحتوف كلاهما يوفى المخارم يرقبان سواى

لأنه أراد النوعين وتبعه ابن عطية فى هذا فقال : وكانتا من حيث هما نوعان ونحوه قول عمرو شيم :

ألم يحزنك أن جبال قيس وتغلب قد تباينتا انقطاعا (١٣).

فلما كان الغرض اعتبار الجنس أو النوع دون اعتبار الأفراد عاد الضمير عليهما باعتبار ذلك . وهذا يشير الى أنهما أى السموات والأرض كانتا كتلة واحدة ففصلهما رب العزة عن بعضهما ، و « رتقا » خبر ولم يثن لأنه فى الأصل مصدر قائم مقام المفعول كالخلق بمعنى المخلوق أو على حذف مضاف أى ذواتى رتق .

وفى قوله تعالى : « وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين » نجد أن الحكم وقع من اثنين وهما داود وسليمان بدلالة قوله « اذ يحكمان » وعندما أراد المولى عز وجل بيان شهادة هذا الحكم قال : وكنا لحكمهم شاهدين ، فأضاف الحكم الى ضمير الجمع مع أن الحكم وقع من اثنين وهما داود وسليمان ولذلك اختلف تأويل المفسرين فقال بعضهم : انه ضمير جمع يراد به مثنى ، وانما وقع الجمع موقع التثنية مجازا ، ولأن التثنية جمع وأقل الجمع اثنـان ، ويدل على أن المراد التثنيـة قراءة ابن عباس « لحكمهما » بصيغة التثنية ، وقال آخرون ان الحكم كما

---

(١٢) الكشاف ٥٧٠/٢ .

(١٣) الدر المصون ٨١/٥ .

يضاف الى الحاكم فقد يضاف الى المحكوم له والمحكوم عليه فاذا أضيف الحكم الى المتحاكمين كان المجموع أكثر الاثنين ، وهــذا يلزم منــه اضافة المصدر الى فاعله ومفعوله دفعة واحدة وهو انما يضاف لأحدهما فقط وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز، فان الحقيقة اضافة المصدر لفاعله والمجــاز اضافته الى مفعوله .

وقد يقع الجمع موقع المثنى لافادة التعظيم كما وقع موقع الواحد لافادة هذا المعنى كما فى قوله تعالى : « ولقد مننا على موسى وهارون ونجيناهما وقومهمــا من الكرب العظيم . ونصرنــاهم فكــانوا هم الغالبين » (١٤) فتجد التثنية فى قوله : « ونجيناهما وقومهما » وفى قوله « ونصرناهم » عدل عن التثنية الى الجمع ، قيل : ان الجمع هنا على حقيقته لأنه أى الضمير « هم » عائد على موسى وهارون وقومهما وهذا هو الأرجح لأن النصر لا يتحقق بموسى وهارون وحدهما وانما يتحقق بمؤازرة قومهما لهما . وقيل الضمير عائد على الاثنين بلفظ الجمع تعظيما كقوله تعالى : « يا أيها النبى اذا طلقتم »(١٥) .

وفى قوله تعالى : « ولا يســأل حميم حميمــا يبصرونهم »(*) جمع الضميرين فى « يبصرونهم » وهما لحميمين حملا على المعنى أى معنى العموم لأنهما نكرتان فى سياق النفى .

وقد يذكر الجمع ويراد منه التثنية ، وذلك لغرض بلاغى يقتضيه المقام كما فى قوله تعالى : « ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك

---

(١٤) سورة الصافات ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ .
(١٥) الطلاق آية ١ .
* سورة المعارج آية ١٠ .

غرضى »(١٦) فقد سبق فى هود قوله تعالى « أقم الصـلاة طـرفى النهار وزلفا من الليل » فكيف جاء هنا بالجمع ؟ والجواب عن ذلك :

قيل هو من وضع الجمع موضع التثنية كقول الشاعر :

ظهراها مثـل ظهـور الترسين

وقيل : هو على حقيقته ، والمراد بأطراف النهار ساعاته .

وقد يقال : ان المراد بأطراف النهار مشرقه ومغربه ، وانمـا جمع لاختلاف أوقات المشرق والمغرب باختلاف الأقطار نظرا لتبـاعد ما بينها فى المسافة ، فلكل قطر مشرقه ومغربه .

وفى قوله تعالى : « وانها لبسبيل مقيم » الضمير فى قولـه تعالى : « وانها » عائد على مدينة قوم لوط ، وقد سبق ذكرها فى قوله تعالى « وجاء أهل المدينة » (١٧) ، وقوله تعالى : « لبسبيل مقيم » أى هذه القرى ما زال قائمـا لم يندرس ولم يخف على النـاظر حين يمر عليها ولذلك جاءت الآية تشير الى ذلك فى قوله تعالى : « وانها لبسبيل مقيم » فالضمير فى « انها » عائد على مدينة قوم لوط فى قوله تعالى : « وجاء أهل المدينة » والذين يمرون من الحجـاز الى الشام يشاهدونها .. وكذلك الذين يمرون من الشام الى الحجاز فهى فى طريق المؤمنين ذهابا وايابا حينما يذهبون لحج بيت الله الحرام فينبغى عليهم أن يعتبروا بما حدث للأمم السابقة لاسيما أنهم يشاهدون آثارهم فى ديارهم ، ولمـا كان أهم صفة المؤمنين هى الوحدانية ناسب ذلك توحيد الآية دلالة على وحدة المؤمنين فى عقيدتهم فكلهم يعبدون ربا واحدا ووحدتهم فى عباداتهم فكلهم يتجهون نحو بيت واحد وهو

---

(١٦) سورة طه : ٧ .
(١٧) سورة الحجر : ٦٧ .

بيت الله الحرام • ووحدتهم فى سلوكهم ومعاملاتهم فكلهم يسلك طريقا واحدا وهو الصراط المستقيم ، قال تعالى « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »الأنعام •

وقد ورد جمع الآية مع المؤمنين فى سورة النحل فى قوله تعالى: « ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (النحل : ٧٩) وذلك عقب ذكر نعم متعددة من خلق الانسان واخراجه من بطن أمه لا يعلم شيئا ثم انتقاله من الجهل الى العلم بخلق منافذ الادراك فيه من السمع والبصر والفؤاد وتهيئتها لتحصيل المعلومات ، وخلق الطير على نحو يمكنها من الطيران فى جو السماء (١٨) فلما تعددت النعم تعددت الآيات وخص بها المؤمنين لأنهم هم المنتفعون بها وان كانت هذه الآيات آيات لكل العقلاء (١٩) •

وورد جمع الآية مع المؤمنين أيضا فى سورة الجاثية فى قوله تعالى «ان فى خلق السموات والأرض لآيات للمؤمنين » (الجاثية : ٣)؛ فما يوجد فى السموات والأرض آيات كثيرة من الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار وغير ذلك مما نعلمه ومما لا نعلمه ، وقد ذكر الفخر الرازى سر اختصاص هذه الآيات بالمؤمنين مع أنها آيات للمؤمنين والكافرين فنقل عن المعتزلة قولهم : انه لما انتفع بها المؤمن دون الكافر أضيف كونها آيات الى المؤمنين ، ونظيره قوله تعالى : « هدى للمتقين » فانه هدى لكل الناس كما قال تعالى « هدى للناس »

---

(١٨) قال تعالى « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون • ألم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله » ٧٠ •

(١٩) التفسير الكبير ٦٠٣/١٨ •

إلا أنه لما انتفع بها المؤمن خاصة لا جرم قيل « هدى للمتقين » فكذا ههنا (٢٠) .

وفي قوله تعالى : « ان تتوبا فقد صغت قلوبكما » (التحريم : ٤) نجد أنه قد وضع الجمع موضع التثنية كراهة توالى تثنيتين لو قيل قلباكما فيكون فيه ثقلا ، واشترط النحويون في وقوع الجمع موقع التثنية شروطا من جملتها : أن يكون ذلك الجزء المضاف مفردا من صاحبه نحو « قلوبكما » و « رؤوس الكبشين » لأمن الالباس بخلاف العينين واليدين والرجلين لو قلت فقأت أعينهما وأنت تعنى : عينيهما ، وكتفت أيديهما ، وأنت تعنى يديهما لم يجز اللبس فلولا أن الدليل دل على أن المراد اليدان اليمنيان لما ساغ ذلك لأنه معلوم أنه يقطع من كل سارق يمينه فهى على هذا متعينة وتكون من باب « صغت قلوبكما » لأمن اللبس (٢١) .

وقالوا ضابط هذه المسألة هو : كل جزأين أضيفا الى كليهما لفظا أو تقديرا ، وكانا مفردين من صاحبيهما جاز فيه ثلاثة أوجه الأحسن والأفصح الجمع ، ويليه الافراد ويليه التثنية والجمع كما في الآيتين والافراد كما في قول الشاعر :

حمامة بطن الواديين ترنمى سقاك من الغر الغوادى مطيرها

والتثنية كما في قول الشاعر :

ومهمهين قذفين مرتين ظهراهما مثل ظهور الترس

وهذا مستفيض في لغة العرب أعنى وقوع الجمع موقع التثنية

---

(٢٠) التفسير الكبير ٢٧/١٦٥ .
(٢١) مفاتيح الغيب ١٥/٢٢٣ .

وقد يقع المثنى موقع الجمع لافادة الكثرة كما فى قوله تعالى : « ثم ارجع البصر كرتين .. » فكرتين مثنى لا يراد به حقيقته بل يراد منه التكثير بدليل قوله « ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » أى مزدجرا وهو كليل ، وهذان الوصفان لا يأتيان بنظرتين ولا ثلاث ، وانما المعنى كرات ، وهذا كقولهم لبيك وسعديك وحنانيك ودواليك وهذاذيك لا يريدون بهذه التثنية شفع الواحد ، وانما يريدون التكثير أى اجابة لك بعد أخرى ، والتثنية تفيد التكثير لقرينه كما يفيده أصلها وهو العطف لقرينة كقول الشاعر :

لو عد قبر وقبر كنت أكرمهم أى قبور كثيرة ليتم المدح

ومعنى الآية أنه سبحانه وتعالى أمر بتكرير البصر فى خلق الرحمن على سبيل التصفح والتتبع هل يجد فيه عيبا وخللا يعنى أنك اذا كررت نظرك لم يرجع اليك بصرك بما طلبته من وجدان الخلل والعيب بل يرجع اليك خاسئا أى مبعدا من قولك خسأت الكلب اذا باعدته « وهو حسير » بمعنى وهو كليل من الحسور الذى هو الاعياء(٢٢)

---

(٢٢) مفاتيح الغيب للرازى ١٥/١٣٦١ .

اهم المصادر والمراجع

١ ــ أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية للدكتور حسن طبل ــ المدينة المنورة .

٢ ــ اعجاز القرآن للرافعى ــ دار الكتاب العربى ــ بيروت لبنان .

٣ ــ الاعجاز البيانى للقرآن للدكتوره عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) ط دار المعارف .

٤ ــ املاء ما من به الرحمن لأبى البقاء العكبرى .

٥ ــ الانتصاف لابن المنير الأسكندرى على هامش الكشاف .

٦ ــ البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ــ دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت .

٧ ــ بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ــ دار الكتاب العربى ــ بيروت لبنان

٨ ــ البرهان فى علوم القرآن للزركشى ــ مكتبة دار التراث ــ القاهرة .

٩ ــ البلاغة القرآنية للدكتور محمد أبو موسى مطبعة وهبة .

١٠ ــ البيان والتبيين للجاحظ ط دار المعارف .

١١ ــ تحفة الأشراف فى كشف غوامض الكشاف للفاضل اليمنى دراسة وتحقيق للمؤلف .

١٢ ــ التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور ــ الدار التونسية للنشر .

١٣ ــ تفسير للشيخ محمد متولى الشعراوى ــ دار أخبار اليوم .

١٤ ــ تفسير الفخر الرازى (التفسير الكبير) نشر دار الغدالعربى .

١٥ ــ تفسير القرطبى ــ دار الريان للتراث ــ القاهرة .

١٦ ــ التفسير القيم للامام ابن القيم ــ تفسير المنار •
١٧ ــ حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوى •
١٨ ــ حاشية قطب الدين الرازى على الكشاف تحقيق د / ابراهيم طه الجعلى الجزء الأول •
١٩ ــ الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبى تحقيق / أحمد الخراط ــ دار القلم ــ دمشق •
٢٠ ــ روح المعانى للألوسى ــ دار احياء التراث العربى ــ بيروت •
٢١ ــ الطراز للعلوى ــ دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان •
٢٢ ــ فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن للشيخ محمد على الصابونى ــ نشر مكتبة الصابونى •
٢٣ ــ فن البلاغة للأستاذ الدكتور عبد القادر حسين ــ دار المنار ــ بيروت ط ثـانية •
٢٤ ــ فى ظلال القرآن لسيد قطب ــ ط دار الشروق •
٢٥ ــ القرآن ــ اعجازه وبلاغته للدكتور عبد القادر حسين ــ المطبعة النموذجية ــ الحلمية الجديد •
٢٦ ــ الكشاف للزمخشرى ــ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع •
٢٧ ــ متشابه النظم القرآنى فى قصة آدم عليه السلام د / عبد الجواد طبق ط دار الأرقم الزقازيق •
٢٨ ــ المحتسب فى تبيين شواذ القراءات لابن جنى ط المجلس الأعلى للشــئون الاسـلامية •
٢٩ ــ المزهر فى علوم اللغة للسيوطى •
٣٠ ــ وجوه الخطاب البلاغية فى القرآن الكريم للدكتور /محمد على أبو زيد مخطوط بمكتبة كلية اللغة العربية بالزقازيق •

الفهـــرس

المقـدمة ٣

الفصل الأول :

ما ورد من المتشابهات فى الافراد والتثنية والجمع ٥

الفصل الثانى :

تنوع الخطاب بين الافراد والتثنية والجمع ٤٦

الفصل الثالث :

جمع القلة وجمع الكثرة ٧١

الفصل الرابع :

وضع الواحد موضع الجمع ووضع الجمع موضع الواحد ٨٩

الفصل الخامس :

الدلالة البلاغية للافراد ١١٨

الفصل السادس :

الدلالة البـلاغية للجميـع ١٢٧

الفصل السابع :

بين الافراد والتثنية ١٣٧

الفصل الثامن :

الافراد والجمع ١٥٤

الفصل التاسع :

بين التثنية والجمع ١٧٥

أهم المصادر والمراجع ١٨٩

الفهـرس ١٩١

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٥٩٢/ ١٩٩٤م